عروبة فلسطين والقدس

في

التاريخ القديم

تأليف

أ.د. محمد خليفة حسن

مدير مركز الدراسات الشرقية

جامعة القاهرة

دار الثقافة العربية

القاهرة ٢٠٠١ م



المحتويات

مقدمة :

إهمال التاريخ الفلسطيني القديم :

أهمل مؤرخو الغرب المتخصصون في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته دراسة التاريخ الفلسطيني ولم يخصصوا في دراستهم الخاصة بشعوب الشرق الأدنى القديم أي ذكر خاص بتاريخ الفلسطينيين في شكل عمل مستقل، أو حتى في شكل فصل مستقل من فصول الدراسة. وهذا الإهمال مقصود لذاته بسبب سيطرة المؤرخين اليهود والصهاينة على مجال الكتابة التاريخية عن فلسطين. ولذلك فقط أخرجوا تاريخ الشعب الفلسطيني القديم من دائرة البحث كشعب من شعوب الشرق الأدنى القديم مركزين تركيزًا شديدًا على دراسة تاريخ العبريين وذلك لتأصيل الوجود اليهودي في فلسطين باستبعاد كل الشعوب الأخرى التي شاركت العبريين في فلسطين أو حلت محلهم في فترات كثيرة من التاريخ القديم، وبخاصة الفلسطينيين الذي سميت المنطقة باسمهم. ففي كتب تاريخ الشرق الأدنى القديم والكتب الخاصة بتاريخ المنطقة السورية يعالج تاريخ فلسطين تحت مسمى تاريخ العبريين، أو تاريخ الإسرائيليين، أو تاريخ اليهود دونما إشارة إلى تاريخ الفلسطينيين سكان المنطقة الأصليين. وعادة ما تضم دراسة تاريخ المنطقة السورية دراسة الشعوب الكنعانية والفينيقية والآرامية والعبرية بدون إشارة إلى الفلسطينيين الذين صمتت عنهم المصادر التاريخية صمتًا مطلقًا لهيمنة المؤرخين الصهاينة على مجال الكتاب في تاريخ فلسطين. وتوجيه حركة الكتابة التاريخية لخدمة الأهداف القومية الصهيونية الرامية إلى تأصيل الوجود اليهودي في فلسطين واستئصال كل وجود للفلسطينيين، أو غيرهم ممن شاركوا في سكنى فلسطين في تاريخها القديم.

وقد اتبع المؤرخون اليهود سياسة التعتيم على أخبار الفلسطينيين في التاريخ القديم وإحاطة هذه الأخبار بالغموض الشديد من أجل تشويه الحقائق التاريخية وإسقاط الفلسطينيين كواحد من الشعوب الرئيسية في منطقة فلسطين.

وهذا الأسلوب اتبعه مؤرخو التوراة قديمًا وكانوا مرشدين للمؤرخين الصهاينة في العصر الحديث، فالتوراة مثلاً تعمدت إهمال الحديث عن الفلسطينيين والكنعانيين والفينيقيين سكان فلسطين الأصليين بل قد أخرجوهم من دائرة الشعوب العربية السامية واعتبروهم غرباء وأجانب. وفي هذا يقول د. أحمد سوسة : " لقد تعمد مدونو التوراة إقصاء الكنعانيين والفينيقيين سكان فلسطين الأصليين من الدوحة العربية السامية لعداء اليهود الشديد لهم فعدوهم من الكوشيين مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم أنهم العرب الساميون الأصليون أهل البلاد في حين أنهم حشروا في الأسرة السامية شعوبًا لا يعدها العم الحديث من جماعة الساميين مثل العيلاميين واللوديين. وقد صب كتبة التوراة جام حقدهم على الكنعانيين فنعتوا كنعان بالملعون. وكذلك اعتبرت التوراة الحيثيين من ذرية كنعان في حين أنهم من الأقوام الهندوأوربية ومثل ذلك اعتبرت العموريين من صلب حام "[1].

وفي التعريف بفلسطين والفلسطينيين في المصادر اليهودية نجد تعتيمًا شديدًا وإبهامًا بأن الفلسطينيين شعب غريب ليست له أصول في المنطقة. ففي دوائر المعارف اليهودية يرد الحديث عن فلسطين والفلسطينيين في شكل مقتضب وغامض يوحي للقارئ بعدم أهمية المكان وسكانه ويؤكد على عدم أصالته وعلى كونه شعبًا عربيًا. الفلسطينيون من شعوب البحر المتوسط تعود أصولهم إلى مواقع في آسيا الصغرى واليونان وأتوا إلى فلسطين في موجات متعاقبة. وقد أتت إحدى هذه الموجات قبل عصر الآباء واستقرت جنوب بئر سبع حيث دخلوا في صراع مع إبراهيم وإسحاق. وأتت موجة أخرى من كبريت بعد طردها من مصر على يد

رمسيس الثالث في (١١٩٤ ق.م) فاحتلت المنطقة الساحلية من جنوب فلسطين حيث انشأوا خمس مدن في غزة وعسقلات وجت وأشدود وعقرون، ولأنهم شعب محارب بالفطرة فقد شيدوا أجزاء من يهوذا زمن القضاة وهزموا شاؤل، لكن داود هزمهم ووضع نهاية لسيادتهم، وبعد سقوط المملكة الإسرائيلية استعاد الفلسطينيون استقلالهم، ولكنهم لم يصبحوا أبدًا عاملاً رئيسيًا في المنطقة وفي العصرين الفارسي واليوناني تغلب مستوطنون أجانب من جزر البحر المتوسط على المدن الفلسطينية وأطلق اليونان منذ هيرودوت اسم فلسطين على هذه المنطقة نسبة إلى فلسطين (فلسطين السورية) وفي عصر هادريان أطلق الرومان هذا الاسم رسميًا على إقليم يهوذا(٢).

وفي مكان آخر تعرف نفس الدائرة فلسطين بأنها الاسم الذي من المحتمل أنه يشير إلى أإض الفلسطينيين والذي أطلقه عليهم في البداية اليونان. وقد سميت فلسطين السورية في العصور الكلاسيكية ثم حذف الجزء الخير من التسمية مع مرور الوقت ومن المحتمل أن يكون الاسم فلسطين قد فرض بواسطة الرومان مكان الاسم القديم يهوذا للتقليل من الارتباط اليهودي بالإقليم. وفلسطين سميت أصلاً في العبرية أرض كنعان ثم تغير إلى أرض إسرائيل في وقت متأخر بالنسبة لتاريخ فلسطين (انظر مادة إسرائيل)(٣).

يتضح من هذه التعريفات الخاصة بفلسطين والفلسطينيين الرغبة الجامحة لدى المؤرخين اليهود لطمس كل المعالم التاريخية للبلد وللشعب حيث تسود المادة المعطاة عنهم عبارات الشك والاحتمال ولا توجد معلومة واحدة ثابتة بل يتدخل المؤرخ الصهيوني ليعطي تعليلاً من عنده لسبب إطلاق الرومان واليونان اسم "فلسطين" على المنطقة بأن هذا رغبة في التقليل من ارتباط اليهود بالمنطقة ثم يشير المؤرخ الصهيوني صراحة إلى أن الاسم العبري القديم الوارد في التوراة هو

"أرض كنعان" ثم أصبح أرض إسرائيل ومن يريد التعرف على الفلسطينيين وفلسطين فعليه أن يود إلى (مادة إسرائيل في الدائرة). وهذا يعني تحجيم التاريخ الفلسطيني وجعله تاريخًا هامشيًا وإدخاله في تاريخ الإسرائيليين تقليلاً لأهميته واعتبار الفلسطينيين مجرد جماعة قليلة ضعيفة من الجماعات التي دخل معها الإسرائيليون في صراع سياسي مثل : الإدوميين والعمونيين والموآبيين واليبوسيين وغيرهم.

الوضع السياسي والحضاري :

والمعروف أن تاريخ فلسطين ارتبط ارتباطًا عضويًا بتاريخ المنطقة المحيطة بفلسطين من الجنوب والشمال والشرق والغرب. ففي الجنوب ارتبطت فلسطين بتاريخ مصر السياسي وأصبحت امتدادًا سياسيًا لمصر في الشمال وموقعًا دائمًا للصراع السياسي بين مصر وقوى بلاد النهرين وقوى آسيا الصغرى. وفي الجنوب أيضًا نجد شبه الجزيرة العربية، وتعتبر فلسطين امتدادًا جغرافيًا لشبه الجزيرة في الشمال. وتأثير شبه الجزيرة العربية، وتأثير شبه الجزيرة العربية لم يكن يشبه التأثير السياسي المصري لضعف إمكانات شبه الجزيرة العربية ولكنه كان تأثيرًا عرقيًا حيث كان لشبه الجزيرة العربية الدور الأساسي في تشكيل البنية السكانية في فلسطين من خلال الهجرات العربية المتوالية إليها، الأمر الذي أدى إلى إحداث تفوق عربي دائم وسياق للرق العربي على الأجناس المختلفة التي ظهرت في منطقة فلسطين. فالهجرات العربية دعمت بشكل دائم للوجود العربي في المنطقة السورية عمومًا وأدت إلى نشأة شعوب عربية مثل الكنعانيين والآراميين والعبريين والفلسطينيين وأدت إلى غلبة الجنس العربي على الأجناس الأخرى التي أتت إلى المنطقة السورية من شمالها وغربها وجنوبها. فمن الشمال وقعت سوريا وفلسطين تحت التأثير السياسي والعرقي للحيثيين والحوريين وغيرهم من قوى بلاد

الأناضول وهم شعوب هندوأورية. ومن الجنوب وقعت سوريا وفلسطين تحت التأثير المصري القوي سياسيًا وعسكريًا والضعيف على مستوى التأثير العرقي الجنسي كانعكاس للسياسة المصرية القديمة التي أدت إلى عدم اختلاط المصريين بالفلسطينيين وغيرهم من سكان المنطقة السورية عرقيًا. فهي سياسة لم تعتمد على الضم المباشر أو الاستيطان ولكنها قامت على أساس من الاعتراف بالسيادة ودفع الضرائب أو الجزية السنوية ولم تستهدف إجراء أي تغيير في البنية السكانية لفلسطين وبقية المنطقة السورية كما فعل البابليون والآشوريون.

ومن الغرب تعرضت فلسطين لغزو شعوب البحر وهم سكان جزر حوض البحر المتوسط وقد اعتادوا على غزو السواحل الغربية للبحر المتوسط وهو معظمه يكون الساحل السوري الفلسطيني الجزء الجنوبي منه والمتاخم للساحل المصري وقد بلغت شعوب البحر مبلغًا من القوة مكنها في بعض الفترات من إقامة كيانات سياسية في المنطقة السورية وفلسطين، بل وتمكنت من غزو أجزاء من الساحل الشمالي لمصر وتمكنت من حكم دلتا مصر، وإليهم تعود بعض الأسر الحاكمة في مصر، وقد أطلقت عليهم المصادر اسم الهكسوس.

من هذا يتضح أن البنية السكانية لمنطقة فلسطين قد تشكلت بتأثير من الأوضاع السياسية والوضع الجغرافي لفلسطين جعلها هدفًا دائمًا للهجرة والغزو فالغزاة يقصدونها من الشمال والجنوب والغرب والشرق، والهجرة أيضًا استهدفتها بشكل مستمر ومن شبه الجزيرة العربية، على وجه الخصوص، وذلك لقرب فلسطين من شبه الجزيرة العربية بل وباعتبار فلسطين امتدادًا شماليًا غربيًا للصحراء الغربية وباعتبارها أيضًا من مناطق الجذب بالنسبة لسكان شبه الجزيرة العربية. وباعتبارها كذلك جزءًا من المنطقة السورية التي انطلقت فيها الهجرات العربية المتكررة والتي كونت لنا أهم سكان المنطقة السورية في التاريخ القديم وهم

الكنعانيون والآراميون والعبريون والفلسطينيون، إضافة إلى المو آبيين والعمونيين والأدوميين وغيرهم من الأقوام والجماعات ذات الأصل والطابع العربي.

وتؤكد عالمة الآثار كاثلين كينيون على هذه الصفة العربية لفلسطين بقولها "على الرغم من أن معظم التأثيرات الحضارية خلال تاريخ فلسطين قد أتتها من الهلال الخصيب فإن تأثيرًا مهمًا آخر وعلى قدر المساواة لا يمكن نسيانه. فالهلال الخصيب يحتوي هضبة الصحراء الغربية والتي عملت منذ فجر التاريخ كمستودع كبير للغزاة البدو على ثروات الهلال المحيط بالصحراء.

إن تاريخ إقليم الهلال قد تغير بشكل عميق بواسطة سلسلة كاملة من غزوات هؤلاء البدو الذين كانوا في بعض الأحيان يغزون ويعودون وفي كثير من الأحيان يغلبون ويستقرون. هؤلاء البدو، كل بدوره، دمروا كثيرًا من الحضارة السابقة في الوجود ولكنهم أيضًا تشربوا الكثير منها، وبإدخالهم دمًا جديدًا أحيوا البنية السكانية وأنعشوها وبدورهم أنتجوا حضارة جديدة. إن الدراسة الأثرية لفلسطين تعطي دليلاً على توالي موجات القادمين وكثير منهم بلا شك يعود بأصله إلى الصحراء، ومن هذه الموجات عرفت لدينا موجتان فقط من موجات كثيرة "(٤). وتعليقًا على رأي كاثلين كينيون نقول إن العبريين لا يكونون موجات مستقلة عن العرب لأن المصدر واحد وهو شبه الجزيرة العربية.

ويعتبر الدكتور أحمد سوسة الهجرة الفلسطينية آخر الهجرات المهمة إلى أرض فلسطين مكونة بذلك آخر الطبقات السكانية المهمة في تاريخ فلسطين(٥). وهذه الهجرات الفلسطينية لم تأت من شبه الجزيرة العربية هذه المرة، ولكنها أتت من البحر المتوسط لغزو الساحل السوري في الشمال أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ويعتقد أنهم من هناك شنوا هجومهم على مصر. وعندما فشلوا عادوا إلى الجزء الجنوبي من الساحل السوري وهو الساحل الفلسطيني. ويطلق العلماء على

هذه الجماعات الغازية من البحر المتوسط اسم " شعوب البحر " أو " أهل السواحل"[٦]. وقد سجلت الآثار المصرية هجوم البحر وقد اختلطت بهم عناصر من البر. وقد سجل رمسيس الثالث (١٣٠٢-١٢٠٤ ق.م) انتصاراته على هذه الشعوب القادمة من البحر والبر وطرده لهم عبر فلسطين إلى بلاد الحيثيين. وقد سمح الفرعون لقبائل منهم بالاستقرار على الساحل الفلسطيني والسوري. وتشكك كاثرين كينيون في تحقيق انتصار مصري شامل على شعوب البحر وأن السماح لهم بالاستقرار في الساحل الفلسطيني والسوري دليل عجز مصري عن طردهم كلية من المنطقة[٧].

وتؤكد الآثار المصرية على كون شعوب البحر جماعة مركبة من عدة عناصر تعود إلى عدة قبائل حيث تذكر آثار رمسيس الثالث أسماء عدد من القبائل هي الفلسطينيون (بولاساتي) والشرادانو والدانونو والشكيليش والزقالة والوشاشا وتضيف بعض القوائم المصرية أسماء قبائل أخرى إلى هذه المذكورة. وقد اختلفت المصادر حول تحديد أصول هذه القبائل فالتوراة، تربط الفلسطينيين بكفتور المناظرة لكفتيو في المصادر المصرية والتي يقولون إنها جزيرة كريت[٨]. ويؤكد بعض العلماء أن بعض هذه القبائل أتت من جنوب غرب آسيا الصغرى، ويرد بعضهم إلى بلاد اليونان مستندين إلى نوع من الفخار جديد على فلسطين عليه رسومات وزخارف بأشكال وعناصر تعود بأصلها إلى الفن الهللاري المتأخر للإيجيين نسبة إلى بحر إيجه، وأقرب نماذج مماثلة لها تظهر في فخار رودس وقبرص. ويقترب التاريخ المعطى لهذه الأواني الفخارية من التاريخ المحدد لطرد رمسيس الثالث لهؤلاء الغزاة وهو حوالي (١١٢٦ ق.م) ومعظم هذه المواد الفخارية عثر عليها على الساحل الفلسطيني، وهي منطقة غزو شعوب البحر،

وتشير الأدلة الأثرية إلى الظهور المفاجئ لهذه الآثار من الفخار في نهاية العصر البرونزي المتأخر على الساحل وإلى الداخل قليلاً[٩].

وقد احتل الفلسطينيون المدن الكنعانية واستقروا فيها أو دمروها وبنوا مدناً جديدة على أنقاضها. وقد اندمج الفلسطينيون في الكنعانيين وورثوا جزءاً من ثقافتهم فأسماء آلهتهم الرئيسية كنعانية مثل " دجون " و" اشتروت ". وتشير قبورهم وعادات الدفن عندهم إلى تأثيرات من خارج فلسطين وبخاصة التأثيرات الإيجية والمسينية والقبرصية. ويذكر أن بعض هذه المؤثرات وجدت أيضاً في مصر وخلال فترات ممتدة من عصر تحتمس الثالث (١٥٠١-١٤٤٧ ق.م) إلى (٦٠٠ ق.م) وتحمل الطابع الإيجي والقبرصي, ومن المعروف أن المصريين استعانوا كثيرًا بجنود مرتزقة وكونوا بعض جنوب من الحامية المصرية في فترة تل العمارنة. ويعتقد أن بعضهم استقر في الساحل الفلسطيني والذي أعطى اسم فلسطين بواسطة الإسرائيليين[١٠].

ورغم أن مناطق الفلسطينيين كانت محدودة والمدن المنسوبة إليهم معروفة وهي غزة وعسقلان وجت وأشدود وعقرون فإن سيادتهم السياسية امتدت وراء ذلك. فقد عاشوا مئات السنين جنبًا إلى جنب مع الكنعانيين والإسرائيليين الذين شاركوهم في سكنى فلسطين. وهناك أماكن أخرى تشير إلى مؤثرات فلسطينية مثل مدينة مجدو وبيت شمش التي بنيت حوالي (١١٥٠ ق.م) ويشهد فخارها بأنها وقعت تحت تأثير فلسطيني كبير ويعتقد أنها مدينة حدود وقعت بين الإسرائيليين والفلسطينيين ويشير حجم الفخار الموجود فيها إلى أنها مدينة فلسطينية رغم الرأي المخالف للتوراة، وقد دمرت هذه المدينة مع نهاية القرن العاشر قبل الميلاد في حروب شاؤل ضد الفلسطينيين[١١].

وتؤكد كاثرين كينيون أن الفلسطينيين عاشوا مئات السنين بجوار الإسرائيليين حيث استقر الفلسطينيون عل السهل الساحلي الغني، بينما استقر الإســرائيليون فــي الإقليم المرتفع المجدب ومنذ عام (١٠٨٠ ق.م) بدأ الفلســطينيون يوســعون مــن سلطتهم على المناطق الداخلية المرتفعة وهي الفترة التي يعتبرها كتاب العهد القديــم فترة اضطهاد فلسطيني للإسرائيليين(١٢).

الفصل الأول

وصف العهد القديم
للتاريخ الفلسطيني

وصف العهد القديم للتاريخ الفلسطيني

أما التسمية " الفلسطينيون " فأقدم ذكر لها في التـــوراة ورد فـــي الاصحـــاح العاشر من سفر التكوين في ذكر مواليد بني حام بن نوح عليه السلام حيـــث يذكـــر "الفلشتيم" و"الكفتوريم" على أنهم من مواليد مصرايم بن حام بن نوح[١]. وواضـــح أن هذا التصنيف التوراتي للأجناس يخرج الفلسطينيين من دائـــرة العـــرب الســـاميين ويعتبرهم من الحاميين رغم أن الأرض المنسوبة إليهم تقع في فلسطين، ثم يرد ذكر الفلسطينيين زمن إسحاق عليه السلام في القرن الثامن عشر قبل الميلاد تقريبًا حيـــن يذكر النص أن إسحاق، اتجه إلى أبيماك ملك الفلسطينيين ويأمره الرب بالتغرب فـــي أرض فلسطين التي يقيم فيها إسحاق ثم يطرده أبيمالك حيث حســـده الفلســـطينيون لكثرة مواشيه[٢]. كما تنص التوراة على أن يعقوب عليه السلام ســـكن فـــي أرض غربة أبيه في أرض كنعان[٣]. وذلك قبل أحداث الخروج إلى أرض مصر بســـبب المجاعة في أرض كنعان.

ويلاحظ خلال هذا السرد التوراتي أن أرض كنعان وفلســـطين كـــانت أرض غربة بالنسبة لإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام وقد استمر هذا الوضع حتـــى خرج يعقوب عليه السلام بجماعته إلى مصر. وهذا يعني أنه لم يكن هناك وجـــود حقيقي لجماعة بني إسرائيل في أرض كنعان وفلسطين قبل خروج يعقـــوب عليـــه السلام وذريته إلى مصر، وينص العهد مع موسى عليه السلام على إعطـــاء بنـــي إسرائيل أرض كنعان أرض غربتهم التي تغربوا فيها[٤].

وتعطي التوراة أدلة قوية على الوجود المبكر للفلســـطينيين إذ يـــرد ذكرهـــم مرتبطًا بحروب " يشوع بن نون " الذي أتم دخول جماعة بنو إسرائيل إلـــى أرض كنعان بعد موسى عليه السلام في موآب وقبل أن يصل بني إسرائيل إلى فلســـطين.

فبعد ذكر حروب يشوع ضد الكنعانيين والعموريين والحيثيين والفرزيين واليبوسيين والحوريين يذكر نصر سفر التثنية أنه لم يبق سوى أرض الفلسطينيين : " وشاخ يشوع تقدم في الأيام فقال له أنت قد شخت تقدمت في الأيام وقد بقيت أرض كثيرة جدًا للامتلاك هذه الأرض الباقية. كل دائرة الفلسطينيين وكل الجشوريين من الشيحور الذي هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالاً تحسب الكنعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة الغزى والأشدودي والأشقلوني والجتي والعقروني والعويين. من التيمن كل أرض الكنعانيين ومغارة التي للصيدونيين إلى أفيق إلى تخم الأموريين وأرض الجبليين وكل لبنان نحو شروق الشمس من بعل جاد تحت جبل حرمون إلى مدخل حماه. جميع سكان الجبل من لبنان إلى مسرفوت مايم جميع الصيدونيين أنا أطردهم من أمام بني إسرائيل إنما أقسمها بالقرعة لإسرائيل ملكًا كما أمرتك "(٥).

ويرد ذكر أرض الفلسطينيين مرة أخرى عندما خرج موسى عليه السلام بجماعة بني إسرائيل من مصر. ففي اختيار طريق الخروج يذكر النص : " إن الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربًا ويرجعوا إلى مصر فأدار الله الشعب في طريق بحر سوف "(٦).

وبعد دخول أرض كنعان يندمج الإسرائيليون في الجماعات التي أقاموا بينها ويختلطون بهم ويعبدون آلهتهم ويتزوجون من بناتهم : " وأخذ يهوذا غزة وتخومها واشقلون وتخومها وعقرون وتخومها "، هذه المناطق الأخيرة سبق أن ذكرتها التوراة كمناطق تابعة للفلسطينيين(٧). ويظهر هذا الاختلاط بين الإسرائيليين والكنعانيين والمناطق الفلسطيني في أقوال التوراة : " وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم ... ولم يطرد منسى أهل بين شان وقراها ولا أهل تعنك وقراها ولا سكان

دور وقراهم ولا سكان يبلعام وقراها ولا سكان مجدو وقراها. فعزم الكنعانيون على السكن في تلك الأرض[٨]. وتوزعت القبائل الإسرائيلية بين السكان الكنعانيين (انظر تفاصيل ذلك في سفر القضاة الإصحاح الأول). ونتيجة لهذا الاندماج في الكنعانيين والفلسطينيين عبد بنو إسرائيل آلهة الكنعانيين والفلسطينيين وغيرهم من الأقوام التي سكنوا بينها : " فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحربيين واليبوسيين واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم فعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب ونسوا الرب إلههم وعبدوا البعليم والسواري "[٩]. وفي موضع آخر نقرأ : " وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب. تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت "[١٠].

ومن بين الآلهة التي عبدها الإسرائيليون الآلهة الفلسطينية : " وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم والعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدا وآلهة موآب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبده فحمى غضب الرب على إسرائيل وباعهم بيد الفلسطينيين "[١١]. ويؤكد هذا الوجود القوي للفلسطينيين في عصر القضاة الذي بدأ بعد عصر يشوع بن نون تلميذ موسى عليه السلام ويصنف الفلسطينيون من بين الشعوب التي حاربها إله إسرائيل : "فقال الرب لبني إسرائيل أليس من المصريين والعموريين وبني عمون والفلسطينيين خلصتكم "[١٢]. ويقع الإسرائيليون تحت حكم الفلسطينيين أربعين سنة حسب نص سفر القضاة ثم عاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب فدفعهم الرب ليد الفلسطينيين أربعة سنة[١٣].

ويروي الإصحاح الرابع من سفر القضاة سيطرة الفلسطينيين على بني إسرائيل وبعض علاقتهم الاجتماعية بهم ومنها زواج شمشون من تمنة الفلسطينية

ويقول النص :" وفي ذلك الوقت كان الفلسطينيون متسطلين علـــى إســرائيل "[١٤]. ويتزوج شمشون من بنات الفلسطينيين رغم اعتراض أبيه وأمــه (القضـــاة ٣:١٤-٤)، ثم يدخل في صراع مع الفلسطينيين المتسلطين على الأرض ويقضي لإســرائيل في أيام الفلسطينيين عشرين سنة[١٥]. وتشير العبارة الأخيرة إلـــى أن الإســرائيليين كانوا يعيشون تحت سيادة الفلسطينيين ثم يقع في حب دليلة الفلسطينية التي تكشـــف سر قوته العظيمة فيأخذه الفلسطينيون إلى غزة ويقلعون عينيه ويوثقونه بالسلاســـل قبل أن ينتقم منهم ومن نفسه، وينص القضاة ١٨ : ١ على أنه لم يكن هنـــاك ملـــك ولا ملك في إسرائيل في تلك الأيام.

ويدخل الفلسطينيون في حروب ضد صموئيل وينهزم الإسرائيليون : "فانكســو إسرائيل أمام الفلسطينيين" (صموئيل الأول ٤ : ٢) وينص أيضًـــا علـــى عبوديـــة الإسرائيليين للفلسطينيين " تشددوا وكونوا رجالاً أيها الفلسطينيون لئـــلا تســتعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم، فكونوا رجالاً وحـــاربوا، فحـــارب الفلســطينيون وانكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته، وكانت الرب عظيمة جدًا وسقط مـــن إسرائيل ثلاثون ألف رجل "[١٦]. وفي هذه المعركة يستولى الفلسطينيون على تابوت العهد " زال المجد من إسرائيل لأن تابوت الله قد أخذ " (صموئيل الأول ٢٢ : ٤). وقد أخذ الفلسطينيون التابوت إلى أشدود ووضعوه في بيت داجون إلههم ... وكـــان تابوت الله في بلاد الفلسطينيين سبعة أشهر[١٧]. ويعتبر هذا قمة الهزيمـــة والإذلال للإسرائيليين سياسيًا ودينيًا، ولا يتمكن الإسرائيليون من الفلسطينيين إلا بـــالمعجزات والضربات الإلهية فيردون عليهم تابوت عـــهدهم (صموئيـــل الأول ٦ : ١٩-٢١). وينظر الإسرائيليون إلى الفلسطينيين على أنهم مضطـــهدون لـــهم : " وقـــال بنـــو إسرائيل لصموئيل لا تكف عن الصراخ من أجلنا إلى الرب إلهنا فيخلصنا مـــن يـــد الفلسطينيين "[١٨]. ويفسر كاتب السفر العبوديـــة للفلســطينيين علـــى أنـــها عقـــاب

للإسرائيليين لأنهم نسوا الرب (صموئيل الأول ٩ : ١٢)، وهو تفسير يتفق مع الإطار العام للتفسير الديني التاريخي عند الإسرائيليين. فهكذا فسرت العبودية الإسرائيلية للمصريين والآشوريين والبابليين : " فصرخوا إلى الرب وقالوا أخطأنا لأننا تركنا الرب عبدنا البعليم والعشتاروت فالآن أنقذنا من يد أعدائنا فنعبدك "[١٩].

ويواصل الفلسطينيون حربهم ضد الإسرائيليين في عصر شاؤل أول ملك لبني إسرائيل وقد كان آخر القضاة وتحدث المبارزة الشهيرة بين جليات الفلسطيني الذي روح الإسرائيليين وسبب لهم الرعب والذي يتحداه داود وينتصر عليه ويفسر انتصار داود على جوليات داخل إطار التفسير الديني للتاريخ : " وتعلم هذه الجماعة كلها أنه ليس بسيف ولا برمح يخلص الرب لأن الحرب للرب وهو يدفعكم لديننا " (صوئيل الأول ١٧ : ٤٧) ويتآمر شاؤل على داود بعد أن ذاعت شهرته ولا يجد أمامه إلا أن يوقعه بيد الفلسطينيين أو يحرض يوناثان ابنه وجميع عبيده ليقتلوا داود (صموئيل ١٨ : ٢٥ ، ١٩ : ١).

ويلجأ داود إلى الفلسطينيين هربًا من مؤامرات شاؤل لقتله " وقال داود في قلبه إني سأهلك يومًا بيد شاؤل فلا شئ خير له من أن أفلت إلى أرض الفلسطينيين فييأس شاؤل مني فلا يفتش عليّ بعد في جميع تخوم إسرائيل فأنجو من يده "[٢٠].

ويلجأ داود إلى أخيش بن معوك ملك جت الفلسطيني، وكان عدد الأيام التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر[٢١]. وأراد ملك جت الفلسطيني استغلال داود ضد " شعبه إسرائيل " وفي معركة تالية ينجح الفلسطينيون في كسب معركة مهمة ضد شاؤل ينتهي الأمر فيها بمقتل شاؤل بيد خوفا من وقوعه في يد الفلسطينيين : " ولما رأى رجال إسرائيل الذين في عبر الوادي والذين في عبر الأردن أن رجال إسرائيل قد هربوا وأن شاؤل وبنيه قد ماتوا تركوا المدن وهربوا فأتى الفلسطينيون وسكنوا بها " (صموئيل الأول ٣١ : ٧).

ويدخل الفلسطينيون جولة جديدة من المعارك ضد داود بعد أن مسح داود ملكًا على بيت يهوذا وفي وقت اشتدت فيه " الحرب الطويلة بين شاؤل وبيت داود، وكان داود يذهب ويتقوى وبيت شاؤل يذهب ويضعف " (صموئيل الثاني ٢ : ٤، ٣: ١) ومسح داود ملكًا على إسرائيل بعد أن حكم بيت يهوذا سبع سنين وستة أشهر. وقد حكم على جميع إسرائيل ثلاثا وثلاثين سنة. ويتغلب داود على الفلسطينيين في بعض المعارك وفي إحدى هذه المعارك يوشك الفلسطينيون على قتل داود (صموئيل الثاني ٢١ : ١٥-١٧). وفي عصر سليمان عليه السلام يتسلط سليمان على جميع الممالك من النهر إلى أرض الفلسطينيين وإلى تخوم مصر[٢٢].

وفي عصر انقسام المملكة من بعده ينشغل كتاب العهد القديم برواية الصراع بين المملكتين المتصارعتين إسرائيل ويهوذا ويكثر الحديث عن الآراميين ولا يرد ذكر الفلسطينيين إلا قليلاً وتسقط الدولة الشمالية في ٧٢٢ ق.م في يد الآشوريين ثم تسقط دولة يهوذا في الجنوب في عام ٥٨٦ ق.م وينتهي عمومًا الوجود السياسي الإسرائيلي وينشغل الإسرائيليون بالسبي وأحداثه وبحياتهم الجديدة في الشتات في آشور وبابل.

ويظهر الفلسطينيون بقوتهم من جديد في عصر الملك آحاز ملك يهوذا (٧٣٥-٧١٥ ق.م)، وفي عهده اقتحم الفلسطينيون مدن السواحل وجنوبي يهوذا وأخذوا بيت شمس وأيلون وجديروث وسكو قراها وتمنة وقراها وجمزوا وقراها وسكنوا هناك لأن الرب ذلل يهوذا " (أخبار الأيام الثاني ٢٨ : ١٨-١٩). وتعتبر فترة الحكم الآشوري والبابلي فترة ضعف عام للإسرائيليين، فقد خضعوا جميعًا لبلاد ما بين النهرين ووقع السبي باليهود فتم تهجيرهم إجباريًا إلى بلاد ما بين النهرين وانتقل مركز الحياة اليهودية من فلسطين إلى بلاد النهرين، وضعف الوجود

اليهودي في فلسطين بينما بقى الفلسطينيون في فلسطين تحت حكم الآشوريين والبابليين.

ويشير " العهد القديم " كمصدر مهم من مصادر تاريخ فلسطين القديم إلى الوجود الفلسطيني القوي، الأمر الذي يحاول المؤرخون الصهاينة إهماله والتستر عليه في التاريخ الحديث، فالتوراة وبقية كتب العهد القديم تحدثت بتفصيل كبير عن أخبار الفلسطينيين ونسبهم الأول، وحياتهم في فلسطين، وعاداتهم وتقاليدهم وآلهتهم وديانتهم، كما تحدثت عن علاقتهم بالعبريين والإسرائيليين وحروبهم المتواصلة ضد الإسرائيليين وأشارت إلى عصور السيادة الفلسطينية على الإسرائيليين وإلى هزائم الإسرائيليين على يد الفلسطينيين إلى غير ذلك من الأخبار السياسية التي أبرزت لنا "العهد القديم" في بعض أسفاره وبخاصة أسفار التوراة يشير إلى غربة الإسرائيليين في فلسطين، وإلى أنها كانت تمثل كيانًا سياسيًا أجنبيًا على الإسرائيليين وفي بعض الحالات كانت فلسطينين ملاذًا وملجأ للإسرائيليين، كما كانت في بعض الأحوال حليفًا ضد أطراف أخرى معادية للفريقين معًا.

وربما يكون لجوء داود عليه السلام إلى الفلسطينيين هربًا من مطاردة شاؤل له أكبر دليل على مكانة الفلسطينيين ودورهم السياسي في النزاعات الإسرائيلية الداخلية بين بيت شاؤل وبيت داود. وقد تدخلت علاقات الفلسطينيين بالإسرائيليين تداخلاً كبيرًا يظهر في الزيجات التي تمت من شخصيات سياسية إسرائيلية لها وزنها في بني إسرائيل، بل تعد من الشخصيات البطولية عند الإسرائيليين مثل "شمشون" الذي تزوج من فلسطينية، ويشير هذا الأمر إلى اختلاط نسب بعض الحكام في تاريخ بني إسرائيل القديم بجمعهم بين النسب الإسرائيلي والفلسطيني من خلال الزيجات التي تمت بين الأسر الحاكمة.

وبالإضافة إلى قوة الوجود الفلسطيني التي يشهد عليها " العهد القديم " كمصدر للتاريخ الفلسطيني على قدر كبير من الأهمية هناك عدة شهادات تاريخية على تعاظم الوجود السياسي للفلسطينيين قديمًا وعلى وجودهم القوي والمستمر في فلسطين، بل وأصالة هذا الوجود واعتبار غيرهم من الجماعات التي عاشت في فلسطين عنصرًا وافدًا عليها. ومن هذه الأدلة أن فلسطين اتخذت اسمها الذي عرفت به في التاريخ من الفلسطينيين وكل المسميات الأخرى التي أطلقت على منطقة فلسطين ليست مسميات أصلية مثل " أرض إسرائيل " و" أرض كنعان " وهي تسميات توراتية ويهودية للمكان. والغريب أن المؤرخين اليهود يعتبرون التسمية فلسطين تسمية رومانية فرضها الرومان لصرف الأنظار عن التسميات اليهودية للمنطقة وذلك على الرغم من أن " كتابهم المقدس " هو الذي استخدم عبارة " أرض الفلسطينيين " و" بلاد الفلسطينيين "، قبل استخدام الرومان للتسمية " فلسطين " بمئات السنين. فالبلد سمى بفلسطين نسبة إلى أصحابه الأصليين الفلسطينيين وبشهادة " العهد القديم " نفسه.

والدليل الثاني شهادة " العهد القديم " على نوع من السيادة الفلسطينية على الإسرائيليين إلى الحد الذي يعتبر فيه الفلسطينيون المحور الرئيسي للتاريخ الإسرائيلي وبخاصة في الفترة من الخروج من مصر إلى قيام مملكة داود وسليمان عليهما السلام وعصر انقسام المملكة.

فالفلسطينيون طرف أساسي في العلاقات السياسية الإسرائيلية ومعظم الصراعات السياسية وما نتج عنها من معارك عسكرية كان محورها الفلسطينيين. والسيادة الفلسطينية على الإسرائيليين نستوحيها من عبارات الاضطهاد الفلسطيني ودعوات تحقيق الخلاص للإسرائيليين من نير الفلسطينيين، واعتبار بعض البطولات الإسرائيلية في الحرب مع الفلسطينيين داخلة في إطار مفهوم الخلاص

المسيطر على فلسفة التاريخ الإسرائيلي. وقد رأينا نماذج من ذلك في عرضنا السابق. وكما قلنا يمكن ربط الخلاص من الفلسطينيين بالخلاص من المصريين والآشوريين والبابليين وغيرهم من الأقوام الذين نظر إليهم الإسرائيليون على أنهم مضطهدون لهم. وهي صورة للفلسطينيين لا تتفق أبدًا مع الصياغة الجديدة لتاريخ الشرق الأدنى القديم على يد مؤرخي الصهيونية في العصر الحديث الذي حاولوا بشتى الطرق طمس الهوية الفلسطينية في الماضي والتعتيم على أخبار "العهد القديم" نفسه فيما يتعلق بالفلسطينيين وإهماله كلية في كتابتهم لتاريخ فلسطين القديم.

ونضيف دليلاً من أدلة استمرارية الوجود الفلسطيني والضعف التدريجي للوجود الإسرائيلي في فلسطين وهو الخاص باستمرارية الهجرات العربية الممتدة من شبه الجزيرة العربية إلى فلسطين. فحركة الهجرة لم تتوقف لأن أسباب الهجرة لم تنته وظلت فلسطين تتلقى موجات من الهجرة لوقوعها إلى الشمال مباشرة من شبه الجزيرة العربية، وهي منطقة جذب متسمر للمهاجرين وللحركة التجارية للشرق الأدنى القديم. وهذه الهجرات المتجددة دعمت الوجود الفلسطيني العربي في مقابل عمليات الخروج المستمرة للإسرائيليين من فلسطين بسبب عمليات التهجير الإجباري التي قام بها الآشوريين والبابليون والرومان وما نتج عنها من شتات يهودي عام. فنحن إذن أمام نوعين من الحركة السكانية في فلسطين : حركة خروج يهودي إجباري إلى بلاد الشتات بفعل الآشوريين والبابليين والرومان تقابلها حركة دخول عربي إلى فلسطين بفعل الهجرات العربية المتواصلة إليها والمدعمة للوجود الفلسطيني العربي فيها. ويستمر هذا الوضع في فلسطين منذ القرن الأول الميلادي الذي وقع فيه السبي الروماني بعد تخريب بيت المقدس ودمار الهيكل وطرد اليهود وحتى ظهور الإسلام الذي أكد بظهوره عروبة فلسطين فأصبحت بلدًا عربيًا خالصًا.

ويجب أن نشير في نهاية هذا الفصل إلى أن تاريخ فلسطين القديم يحتاج إلى اهتمام شديد من الدارسين العرب. وللأسف الشديد فإن تاريخ فلسطين يكتب من مصادر يهودية مثل العهد القديم وغيره لأنها المصادر المسيطرة في هذا المجال ولا توجد مصادر عربية تغني الباحث عن العودة إلى المصادر اليهودية والتي يجب التعامل معها بحذر شديد واستخدامها في الحدود التي تخدم التاريخ الفلسطيني.

الفصل الثاني

عروبة فلسطين
في التاريخ القديم

عروبة فلسطين في التاريخ القديم

مقدمة :

يمدنا التاريخ السياسي لليهود بعدد من الأدلة التاريخية على عروبة فلسطين في التاريخ القديم، وهذه الأدلة نستمدها من تتبع مسيرة التاريخ السياسي اليهودي قبل ظهور الإسلام ونود أن نشير في البداية إلى أن تاريخ فلسطين القديم تاريخ عربي منذ بدايته وإلى الوقت الحالي. وفي التاريخ القديم بالذات بدأ تاريخ فلسطين عربيًا وانتهى عربيًا، والدعاوى الصهيونية المستندة إلى يهودية فلسطين في التاريخ القديم دعاوى ليس لها سند من التاريخ العام لفلسطين. كما أن مسيرة التاريخ اليهودي القديم لا تؤكد هذا الادعاء الصهيوني الحديث كما سنوضح في هذا الفصل.

لقد بدأ تاريخ فلسطين عربيًا بفضل الهجرات العربية المتوالية إلى المنطقة السورية من قلب شبه الجزيرة العربية، والتي أدت إلى تكوين البنية السكانية الأساسية للمنطقة السورية، وبخاصة فلسطين الواقعة على الحدود الشمالية لشبه الجزيرة العربية مباشرة، وتأثير الهجرات العربية القديمة لم ينحصر فقط في المنطقة السورية ولكنه امتد إلى بلاد أخرى من الشرق الأدنى القديم من بينها شعوب بلاد النهرين التي أدت الهجرات العربية إليها إلى تغيير بنيتها السكانية، وفرض السيادة العربية السامية عليها، وتحويل سكانها من هندوأوروبيين إلى عرب ساميين، وقيام أول دولة عربية سامية في بلاد النهرين وهي دولة أكد، كما امتد تأثير الهجرات العربية من شبه الجزيرة إلى مناطق أخرى من بينها مصر القديمة وكانت شبه جزيرة سيناء بؤرة احتكاك العرب بالمصريين، ومنطقة ربط لمصر القديمة بشبه الجزيرة العربية، وقد تغلغلت القبائل العربية إلى هذه المنطقة ومنها امتد تأثيرها إلى الأجزاء الشرقية من مصر القديمة، ومن الجنوب العربي توجهت

الهجرات العربية أيضًا إلى الساحل الشرقي للقارة الإفريقية، فتكونت جاليات عربية على هذا الساحل توغل بعضها إلى داخل القارة الإفريقية، وكان لها تأثيرها في البنية السكانية للساحل الشرقي، وقد ظهر هذا التأثير في مجال اللغة والعادات والتقاليد وانتهى الأمر في بعض هذه المناطق إلى تطور لهجات عربية سامية مثل اللغة الحبشية القديمة، وكثير من اللهجات المنتشرة في المنطقة الشرقية من القارة، وأدى التغلغل العربي إلى شبه جزيرة سيناء وبعض المناطق الشرقية من مصر القديمة إلى احتواء اللغة المصرية القديمة على عناصر ومظاهر لغوية سامية كثيرة.

هذا ولم تغير الأوضاع السياسية في الشرق الأدنى القديم من هذه الصبغة العربية لشعوب المنطقة السامية، فالقوى الأجنبية الدخيلة على المنطقة، كالفرس والمصريين والرومان وغيرهم لم تتمكن من تغيير البنية السكانية للمنطقة، كما أنها أيضًا لم تتمكن من فرض فكرها وثقافتها على شعوب هذه المنطقة فظل تفكيرها عربيًا، وظل سكانها محتفظين بأصولهم العربية التي قوتها وغذتها الهجرات العربية التي لم تتوقف على الإطلاق، ولم يكن للأوضاع السياسية والعسكرية في الشرق الأدنى القديم تأثير عليها، وذلك لأنها هجرات طبيعية لم تأخذ شكلاً عسكريًا تجعلها مرفوضة من سكان المنطقة، ولكنها اتخذت شكل الدخول السلمي إلى مناطق لم تعرف حدوداً فاصلة فيما بينها، فضلاً عن أن هذه المناطق كانت الامتداد الجغرافي الطبيعي لشبه الجزيرة العربية، ومن هنا فقد كانت منطقة جذب مستمر لسكان شبه الجزيرة كلما ألمت بهم ضائقة اقتصادية واستجابة للظروف الاقتصادية لشبه الجزيرة التي جعلتها منطقة طرد مستمر لسكانها، وجعلت مناطق الوديان المحيطة بها وجهة مستديمة لإنسان شبه الجزيرة العربية.

وكما بدأ تاريخ فلسطين القديم بداية عربية فقد انتهى تاريخ فلسطين القديم ايضا نهاية عربية، فقد أدى ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية وانتشاره في بيئة الشرق الأدنى القديم إلى عودة البنية العربية للشرق الأدنى القديم خاصة المنطقة السامية منه والتي أدى بها التطور السياسي والفكري إلى الاستقلال تدريجيًا عن أصلها العربي القديم، فنشأت مجموعة من الشعوب القوية التي كونت حضارات مستقلة عن الحضارة العربية وإن كانت هذه الأخيرة قد استمرت واحدة من أهم روافد هذه الحضارات الناشئة والمتطورة وهي الحضارات المستقلة لبلاد النهرين وللمنطقة السورية.

وقد صاحب هذا الاستقلال الحضاري لشعوب المنطقة السامية استقلال لغوي حيث تطورت لهجات هذه المناطق المرتبطة بالعربية كأصل لها، ونتج عن هذا التطور ظهور عدد من اللغات السامية المستقلة عن اللغة العربية ومن أهمها الأكدية في بلاد النهرين والكنعانية والفينيقية والآرامية والعبرية وكلها لغات سامية ظهرت في المنطقة السورية، كما استقلت اللغة الحبشية التي تطورت على أرض غير سامية استنادًا إلى أصول عربية، وهكذا نجد أن شعوب المنطقة السامية التي ساعدت على تكوينها الهجرات العربية من شبه الجزيرة العربية قد استقلت سياسيًا وفكريًا وتطورت لغاتها المتأثرة بالعربية إلى لغات مستقلة كونت لنا أسرة اللغات العربية السامية المعروفة.

وقد أدى ظهور الإسلام إلى التأكيد من جديد على الأصول العربية للشعوب السامية، وبفضل الإسلام عادت هذه الشعوب السامية إلى حظيرة العروبة بعد دخولها في الإسلام، ووحد الإسلام هذه الشعوب دينيًا، كما وحد بينها فكريًا من خلال وحدة اللغة التي أصبحت لغة الخطاب والكتابة لكل سكان الشرق الأدنى القديم بعد سيادة الإسلام فيه، وعادت اللغة العربية من جديد لتحتل مكانها القديم حين

كانت أصلاً لكل اللغات السامية قبل أن تستقل هذه اللغات عنها. ولم يكتف الإسلام بجعل العربية أصلاً للغات المنطقة، ولكنه وحد شعوب هذه المنطقة لغويًا من خلال القضاء على كل اللغات السامية في المنطقة، وجعل العربية لغة للشرق الأدنى القديم ولسانًا للدين الجديد، وهو الوضع الذي استمر إلى يومنا الحالي. وهكذا بدأ تاريخ فلسطين القديم عربيًا وانتهى مع ظهور الإسلام عربيًا وظل بعد ظهور الإسلام عربيًا إلى يومنا الحالي، وعروبة فلسطين مسألة ليست في حاجة إلى تأكيد من خلال التاريخ العربي الإسلامي، وهو أمر مفروغ منه، والأدلة عليه لا تحصى كما أن الدراسات التاريخية التي أثبتت ذلك كثيرة على اختلاف العصور الإسلامية، بل إن عروبة فلسطين تجاوزت أعنف أزمة كان من المكن أن تؤثر فيها وهي أزمة الوجود الصليبي في فلسطين، والذي لم ينجح أبدًا في طمس معالم فلسطين العربية، لذلك فإن هدف هذا البحث ليس إثبات عروبة فلسطين من خلال التاريخ العربي الإسلامي، ولكن إثبات هذه العروبة من خلال التاريخ السياسي والديني لليهود، وهو الأمر الأكثر صعوبة، والأخطر على المستوى الفكري، والأجدى نفعًا في الرد على المزاعم الصهيونية الحديثة التي تحاول أن تنفي عروبة فلسطين في الماضي من أجل تأصيل الوجود الصهيوني فيها في الحاضر. وسنحاول في الصفحات التالية تقديم الأدلة على عروبة فلسطين على المستويين التاريخي والديني على الرغم من تداخل هذين المستويين فيما يتعلق بالتاريخ اليهودي العام.

أدلة عروبة فلسطين في التاريخ السياسي لليهود :

من المقدمة السابقة، اتضح لنا أن القاعدة السكانية الأساسية لفلسطين في التاريخ القديم السابق على الإسلام قاعدة عربية، فالبنية السكانية لفلسطين اعتمدت اعتمادًا كليًا على الهجرات القادمة من شبه الجزيرة العربية، وهي هجرات قديمة سابقة على الهجرة التي كونت العبريين بمئات السنين.

وقد تسببت هذه الهجرات العربية المتكررة في تكوين طبقات من البنية السكانية في فلسطين تظهر في تعدد الشعوب الساكنة لهذه المنطقة مع تعدد الهجرات العربية إليها، ورغم تعدد هذه الطبقات إلا أنها جميعًا تشترك في أصلها العربي ربما باستثناء الطبقة التي حملتها هجرة أو غزو شعوب البحر للساحل السوري والتي خلفت وراءها بعض جماعات استقرت في بعض بلدان الساحل السوري، بل إن بعضها تجاوز المنطقة السورية إلى مصر حيث غزت هذه الجماعات بعض الأجزاء الشمالية واستقرت فيها.

والجدير بالذكر أن الهجرة التي كونت العبريين في فلسطين هي هجرة عربية تمت في بدايات الألف الثاني ق.م مؤكدة الأصل العربي للعبريين ومدعمة لكون هذه الهجرة المسماة بالهجرة العبرية ممثلة لطبقة من الطبقات السكانية في منطقة فلسطين، وهي بالتأكيد من الطبقات المشتركة في القاعدة العربية وفي الأصل العربي، فالعبريون أنفسهم حملتهم إحدى الهجرات العربية إلى فلسطين مسبوقين بهجرات عربية سابقة وملحوقين أيضًا بهجرات عربية تالية ومكونين لطبقة من الطبقات السكانية في المنطقة إلى جانب الكنعانيين والفينيقيين والفلسطينيين والمؤآبيين والأدوميين واليبوسيين وغيرهم من الأقوام الذين سكنوا فلسطين فترات متوالية وانصهروا جميعًا في شكل بناء واحد متعدد الطبقات ومشترك في القاعدة العربية الأساسية.

ومسألة انفصال العبريين عن أصولهم العربية مسألة ليست محسومة تاريخيًا، فحدود فلسطين ما هي إلا امتداد لشبه الجزيرة العربية في الشمال ودليلنا التاريخي والديني على ذلك أن سكنى إبراهيم عليه السلام كانت على الأرجح في منطقة تجمع بين جنوب فلسطين وشمال شبه الجزيرة العربية. وقد انتشر الإسماعيليون أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام إلى الجنوب بينما كان انتشار إسحاق بن إبراهيم

عليهما السلام إلى الشمال. وفي عصرهم هذا كان الكل عربًا فإسماعيل وإسحاق عليهما السلام أخوان من أبيهم إبراهيم عليه السلام، تجمعهما الأسرة الواحدة والمستقبل الواحد، وقد شاء مؤرخو التوراة أن يجعلوا انفصال إسحاق عن إسماعيل انفصالاً تعسفيًا، فاعتبروا إسحاق البداية للتاريخ العبري القديم، وأنكروا التاريخ الإسماعيلي تمامًا، وفسروا أحداث هذه الفترة تفسيرًا يخدم نزعة الفصل هذه وكأنها حدثت زمن إبراهيم عليه السلام بإلصاق الوعد الإلهي به، وتحقيق وراثة هذا العهد في إسحاق وذريته وإنكار نسبة العهد إلى إسماعيل وذريته، بل والتعتيم كلية على أخبار إسماعيل، وكأنه لم يكن موجوداً على الإطلاق. وقد بدأت هذه العملية بإنكار بكورة إسماعيل لكون أمه أجنبية، ومنح البكورة لإسحاق عليه السلام واعتباره هو الذبيح وتحويل هذا الشرف إلى إسحاق عليه السلام. ويجب أن نشير إلى أن هذه العملية المحرفة والمشوهة للتاريخ ليست من فعل أبناء العصر نفسه فهم أبناء النبوة وأبناء الأسرة الواحدة، ولكنها عملية من تركيب العقل اليهودي المتأخر الذي عمل على طمس المعالم العربية لعصر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام بالتركيز على إسحاق وذريته، وإهمال إسماعيل وذريته، وتفسير أحداث هذه الفترة لصالح الاتجاه العنصري الذي ساد اليهود فيما بعد وطغى على كُتّاب ومدوني التوراة وبقية كتب العهد القديم.

وعلى الرغم من ذلك فهناك براهين تشير إلى أن مسيرة التاريخ العبري القديم اتجهت وجهة مؤدية إلى تفريغ فلسطين من سكانها العبريين بالذات دون غيرهم من الأقوام العرب الآخرين الذي سبقوا العبرانيين في الوجود في فلسطين حيث حملتهم هجرات عربية سابقة على هجرة العبريين.

بالإضافة إلى أن مسيرة تاريخ هؤلاء الأقوام العرب لم تؤد بهم إلى ترك فلسطين كما حدث مع العبريين لأسباب كانت أحيانًا اقتصادية وفي معظم الأحيان

كانت سياسية، والذي نجم عنه ما نسميه بعمليات التفريغ أو الإخلاء السياسي لفلسطين من سكانها العبريين والتي نوجزها في الأحداث الاقتصادية والسياسية الهامة التالية :

الخروج الاقتصادي إلى مصر :

يمكن القول إن أول عملية إخراج للبني إسرائيل من فلسطين قد تمت في ظروف اقتصادية خالصة ولم يكن للسياسة دور فيه على الإطلاق، ونقصد بهذه العملية خروج يعقوب وبنيه وذريته في هجرة جماعية إلى مصر هربًا من المجاعات والظروف الاقتصادية الصعبة التي مرت بها منطقة فلسطين خلال هذه الفترة والتي أكدتها المصادر الدينية كالتوراة والقرآن الكريم، وإسلاميًا يمكن أن نضيف سببًا دينيًا لهذه الهجرة اليعقوبية وهو ارتباطها بنبوة يعقوب ويوسف عليهما السلام وما يتعلق بذلك من دروس دينية وأخلاقية تتصل بعلاقة يوسف بإخوته من ناحية وجهود الدعوة إلى التوحيد في مصر بواسطة يوسف عليه السلام من ناحية أخرى، وهذا السبب الديني لا تهتم به المصادر اليهودية. كما أن التوراة في روايتها لقصة يوسف تغفله إغفالاً تامًا، فالهجرة إلى مصر خالية من المضمون الديني في الرواية اليهودية لها، وهي بلاشك رواية متأخرة متأثرة بالاتجاه الرامي إلى عنصرة التاريخ الإسرائيلي القديم، وتخصيص التوحيد تعد إحدى وسائل هذه العنصرة، وهي تعني في هذا الخصوص أن خصوصية التوحيد في بني إسرائيل لا تسمح بالضرورة بنشره خارج بني إسرائيل، ومن هنا خلت قصة يوسف عليه السلام في التوراة من الهدف الديني الساعي إلى نشر التوحيد والدعوة إليه خارج بني إسرائيل.

لذلك فالخروج إلى مصر زمن يعقوب ويوسف عليهما السلام من وجهة نظر المصادر اليهودية لم يكن خروجًا دينيًا أي لتحقيق أهداف دينية، ولكنه صور على

أنه خروج اقتصادي لمقاومة الجوع الذي حل بالأرض، والذي يهمنا في هذه المسألة أن الخروج قد تم بصرف النظر عن دواعيه وأهدافه، وبنظرة فاحصة إلى أسماء بني إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر يتضح أن الهجرة إلى مصر اشتملت على كل ذرية يعقوب عليه السلام الذين أصبحوا فيما بعد رؤوس أسباط بني إسرائيل أي أنهم يمثلون علية القوم خاصة في ارتباطهم بالنسب اليعقوبي من ناحية، وارتباط الأحداث الدينية أو التاريخ الديني لبني إسرائيل بهم من ناحية أخرى، وهذا يعني أن أرض فلسطين قد خلت تمامًا من العنصر الأساسي والهام في بنية الجماعة العبرية أو الإسرائيلية في فلسطين وأن ما بقى من بني إسرائيل في فلسطين ممن لم يهاجروا مع يعقوب وبنيه إنما يمثلون أراذل القوم وضعفائهم الذين لا يملكون المقدرة السياسية أو الدينية على الاستمرار في الوجود. وهذا يدل على أن أرض فلسطين من بعد هجرة يعقوب عليه السلام لم تكن واقعة تحت أي سيادة للعبريين بسبب هذا النزوح الجماعي لعلية القوم ورؤسائهم الدينيين والسياسيين إن صح هذا التعبير الأخير، حيث لم يكن هناك تاريخ سياسي بالمعنى المعروف لهذا الاصطلاح.

ولكي نؤكد هذا لابد من الرجوع إلى سفر التكوين في التوراة الذي حدد لنا الشخصيات الإسرائيلية التي هاجرت مع يعقوب عليه السلام، ولابد أيضًا من الرجوع إلى سفر العدد الذي حدد لنا أعداد الخارجين من مصر زمن موسى عليه السلام لكي نعلم بالدليل الإحصائي أن البنية الأساسية لبني إسرائيل كجماعة زمن يعقوب ويوسف عليهما السلام لم يكن مقرها فلسطين، ولكنها كانت تعيش خارج فلسطين، وفي مصر بالذات حتى زمن الخروج من مصر، وبين الدخول إلى مصر زمن يعقوب والخروج منها زمن موسى خمسة قرون عاشها بنو إسرائيل بعيدًا عن أرض فلسطين.

ففي سفر التكوين نقرأ : " وهذه أسماء بني إسرائيل الذين جاءوا إلى مصـــر، يعقوب وبنوه : بكر يعقوب رأوبين .. وبنو شمعون .. وبنو لاوي .. وبنو يـــهوذا .. وبنو يساكر .. وبنو زبولون .. جميع نفوس بنيه وبناته ثلاث وثلاثون .. وبنو جـاد .. وبنو أشير .. وبنو بنيامين .. وبان دان حوشين .. وبنو نفتـــالي جميعـــهم "[1]. بالإضافة طبعًا إلى أبناء يوسف عليه السلام الذين ولدوا أصلاً في مصـــر، وهـذه المجموعة المذكورة هم أبناء يعقوب الإثنى عشر رؤساء أسباط بني إسرائيل فيمـــا بعد، وهذا يعني خلو فلسطين من القاعدة أو البنية السكانية الأساسـية للإسـرائيليين أي المنتسبين إلى يعقوب نفسه حيث يقول سفر التكوين، جميع النفوس ليعقوب التـي أتت إلى مصر الخارجة من صلبه ما عدا نساء بني يعقوب جميـع النفـوس سـت وستون نفسًا وابنا يوسف اللذان ولدا له في مصر نفسان، جميع نفوس بيت يعقـوب التي جاءت إلى مصر سبعون[2]. وفي نص سابق تأكيد على أن الإسرائيليين الذيـن قدموا إلى مصر أتوا ومعهم ممتلكاتهم ومواشيهم أي أنهم لم يتركوا شـيئًا ذا قيمـة عند رحيلهم من فلسطين، يقول النص : " وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأولادهـم ونساءهم في العجلات التي أرسل فرعون لحمله وأخذوا مواشيهم ومقتنـــاهم الـذي اقتنوا في أرض كنعان وجاءوا إلى مصر، يعقوب وكل نسله معه وبنوه وبنو بنيـــه معه وبناته وبنات بنيه وكل نسله جاء بهم معه إلى مصر[3].

وعبارة " أخذوا مواشيهم ومقتناهم الذي اقتنوا في أرض كنعان " عبارة لـــها دلالة خاصة فهي تعني أن هجرة يعقوب وبنيه لم تكن هجرة مؤقتة إلى مصر تنتهي بانتهاء المجاعة في فلسطين، ولكنها كانت هجرة جماعيـــة غـير مؤقتـة وربمـا للاستقرار النهائي في مصر، ولنا في طول الفترة التي قضاها الإســـرائيليون فـي مصر دليل قوي على ذلك، فهي فترة تقترب من خمسة قرون كاملة ممتدة بين زمـن يعقوب في القرن الثامن عشر قبل الميلاد إلى زمن موسى في القرن الثالث عشـــر

قبل الميلاد، كما أن التوراة تؤكد في أكثر من موضع على أن بني إسرائيل سيصبحون أمة في مصر بمعنى أن الهجرة إليها ليست هجرة مؤقتة : " فكلم الله إسرائيل في رؤى الليل، فقال أنا الله وأنا إله أبيك، لا تخف من النزول إلى مصر لأني أجعلك أمة عظيمة هناك "[٤].

ويؤكد سفر الخروج على هذا بعد إحصاء أسماء بني إسرائيل الذين أتوا إلى مصر : " وهذه أسماء بني إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر مع يعقوب جاء كل إنسان وبنيه رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالى وجاد وأشير، وكانت جميع نفوس الخارجين من صلب يعقوب سبعين نفسًا ولكن يوسف كان في مصر ومات يوسف وكل أخوته وجميع ذلك الجيل، وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرًا جدًا وامتلأت الأرض بهم "[٥].

تشير هذه الاقتباسات السابقة إلى أن الإسرائيليين هاجروا إلى مصر هجرة تامة حاملين مواشيهم وممتلكاتهم، وانقطعت صلتهم بفلسطين، ومارسوا حياتهم الطبيعية في مصر حيث كثروا وأصبحوا جماعة كبيرة كما يدل الإحصاء الذي ذكرته التوراة لأعداد الخارجين من مصر أيام موسى عليه السلام : " فارتحل بنو إسرائيل من رعمسس إلى سكوت نحو ست مائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد .. وأما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربع مئة وثلاثين سنة[٦]، وهذا قد وصفت الأرض التي اتجه إليها الإسرائيليون بعد خروجهم من مصر بأرض الفلسطينيين : " وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربًا ويرجعوا إلى مصر "[٧]. وفي نفس هذا الموقع تذكر التوراة أسماء الأقوام الساكنين الأرض التي سيدخل إليها الإسرائيليون : " ويكون متى أدخلك الرب أرض

الكنعانيين والحيثيين والأموريين والحويين واليبوسيين التي حلف لآبائك أن يعطيك أرضًا تفيض لبنًا وعسلاً .. "(٨).

كل هذه النصوص تحمل لنا اعترافات توراتية بأن الأرض التي اتجه إليها الخارجون من مصر لم تكن أرضًا إسرائيلية، ولكنها أرض فلسطينية، كما أن شعوبًا أخرى تواجدت في هذه المنطقة أو حولها، ولم يكن الإسرائيليون واحدًا من هذه الشعوب حسب النصوص التوراتية وذلك بسبب تواجدهم في مصر ويحصى لنا سفر العدد أعداد الخارجين من مصر حسب أسباط بني إسرائيل في السنة الثانية لخروجهم، والإحصاء يخص الخارجين للحرب من كل سبط ولا يشتمل على أعداد من هم أقل من عشرين عامًا أو على النساء والشيوخ والأطفال : " فكان المعدودون منهم لسبط رأوبين ستة وأربعين ألف وخمس مائة .. المعدودون منهم لسبط شمعون تسعة وخمسين ألف وثلاث مائة .. والمعدودون منهم لسبط يهوذا أربعة وسبعين ألفًا وست مائة ". وهكذا مع بقية الأسباط إلى أن يصل عددهم جميعًا، " فكان جميع المعدودين من بني إسرائيل ست مئة ألف وثلاثة وخمس مئة وخمسين وأما اللاويون ... فلم يعدوا بينهم "(٩). والغرض من إعطاء هذا الإحصاء التوراتي لبني إسرائيل إثبات أن الوجود الفعلي للإسرائيليين خلال هذه الفترة التي بدأت بهجرة يعقوب عليه السلام لم يكن في أرض فلسطين كما يظهر من هذه الأعداد الضخمة للخارجين من مصر من موسى عليه السلام من ناحية، وكما يبدو من تسمية فلسطين بأرض الفلسطينيين في التوراة ذاتها وخلال نفس هذه الفترة، وكما يتضح أيضًا من أن رؤساء أسباط بني إسرائيل كانوا على رأس المهاجرين إلى مصر، وأن هذه الأسباط لم تتكاثر وتتوالد إلا خارج فلسطين وفي مصر بالذات، ولم يكن لها وجود فعلي في فلسطين في الفترة من القرن الثامن عشر ق.م وحتى الخروج من مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

الغزو الآشوري لفلسطين وأثره في التكوين السكاني :

الحادثة التاريخية التالية ذات التأثير في تغيير البنية السكانية لفلسطين هي حادثة الغزو الآشوري لمنطقة فلسطين في القرن الثامن قبل الميلاد، ففي عام ٧٤٣ ق.م، بدأ تجلات بيلاسر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) في شن مجموعة حملات على المنطقة السورية انتهت في عام (٧٣٨ ق.م) بخضوع معظم الولايات السورية وشمال فلسطين لحكم تجلات بيلاسر الثالث ودفع الجزية له[١٠].

وقد اختلفت حملات تجلات بيلاسر عن سابقيه في أنها لم تكن حملات لجمع الجزية ولكنها كانت غزواً كاملاً واستيطاناً حيث طبق تجلات بيلاسر نظام الضم الكامل للمناطق المغزوة إلى ملك آشور كما طبق سياسة تهجير وترحيل جماعات من السكان في المناطق التي تم فتحها، واستبدالهم بسكان جدد، وإجراء تعديلات في البنية السكانية بهدف القضاء على عناصر التمرد من خلال ترحيلهم وإحلال غيرهم بدلاً منهم،، فيقضي بذلك على كل استمرار للمقاومة وقطع سبل إمدادها وهي سياسة سنها تجلات بيلاسر الثالث وانتهجها ملوك آشور من بعده[١١]. ولمقاومة الغزو الآشوري دخلت إسرائيل الشمالية مع الولايات الآرامية في المنطقة السورية في اتحاد عسكري ضد الآشوريين، بينما رفضت مملكة يهوذا في الجنوب الانضمام إلى هذا التحالف، وقد انقض تجلات بيلاسر الثالث على هذا التحالف ودمره من خلال عدة حملات بدأت عام (٧٢٤ ق.م)، ونتج عنها إخضاع مملكة إسرائيل الشمالية والمدن الفلسطينية المتمردة خاصة مدينة غزة ووصل بحملاته إلى وادي العريش حيث أسس قاعدة عسكرية هدفها منع المساعدة المصرية عن هذا التحالف[١٢]. وفي عام (٧٣٣ ق.م) بعث بعدة حملات أخرى إلى مملكة إسرائيل الشمالية نتج عنها احتلال " عيون وابل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعد والجليل وكل أرض نفتالى وسباهم إلى آشور "[١٣].

وفي عام (٧٢١ ق.م) سقطت السامرة عاصمة الشمال الفلسطيني، وكان ذلك حسب رواية العهد القديم " في السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك آشور السامرة وسبى إسرائيل إلى آشور وأسكنهم في حلح وخابور نهر جوران وفي مدى مادى "(١٤).

والذي يهمنا في هذه التفاصيل التاريخية ما يختص بالتغيرات السكانية التي أجراها ملوك آشور في منطقة فلسطين، فتطبيقًا لنظام الضم المباشر للمناطق الخاضعة لحكم آشور وسياسة الإحلال السكاني القائم على سبى وتهجير السكان وإحلالهم بسكان آخرين إما من بلاد آشور ذاتها أو من البلاد المجاورة لفلسطين، فإن هذا النظام الآشوري تم تطبيقه حرفيًا على سكان فلسطين فعلى حسب النصوص الواردة في سفر الملوك الثاني نجد أن النتيجة النهائية للغزو الآشوري للشمال الفلسطيني هي سبى سكان هذه المناطق وتهجيرهم إلى آشور وإسكان غيرهم في أماكنهم، ففي أحد هذه النصوص نقرأ : " فسبى إسرائيل من أرضه إلى آشور إلى هذا اليوم. وأتى ملك آشور بقوم من بابل وكوث وعوا وحماة وسفروايم وأسكنهم في مدن السامرة عوضًا عن بني إسرائيل فامتلكوا السامرة وسكنوا في مدنها .. فكانت كل أمة تعمل آلهتها ووضعوها في بيوت المرتفعات التي عملها السامريون كل أمة في مدنها التي سكنت فيها، فعمل أهل بابل سكوت بنوث وأهل كوت عملوا نرجل وأهل حماة عملوا أشيما .."(١٥). ويوضح هذا النص أن الأقوام الذين حلوا مكان الإسرائيليين في السامرة وغيرها استوطنوا هذه المناطق، ومارسوا فيها حياتهم العادية بما في ذلك حياتهم الدينية كما كانوا في مناطقهم الأصلية في بابل وغيرها من مدن بلاد النهرين وكذلك في حماة وغيرها من المدن المحيطة بفلسطين والواقعة تحت الغزو الآشوري. فالسياسة الآشورية، كما هو واضح، اعتمدت اعتمادًا كليًا على الإبدال والإحلال لسكان المناطق المغزوة، فأحدثت بذلك خلخلة في البنية السكانية لهذه المنطقة، وفي نص آخر يدعو ملك آشور وأرشليم

وسكانها إلى عقد صلح معه هذا نصه : " اعقدوا معي صلحًا واخرجوا إليّ .. حتى آتي وآخذكم إلى أرض كأرضكم خبز وكروم أرض زيتون وعسل وأحيوا ولا تموتوا ولا تسمعوا لحزقيا (ملك يهوذا)"[١٦]. ومعنى هذا النص أن عقد الصلح مع ملك آشور لا يعفي سكان أورشليم من تركها إلى أرض أخرى يحددها ملك آشور لمعيشتهم إما في بلاد النهرين أو في مناطق أخرى تابعة للحكم الآشوري.

وتأكيدًا لسياسة الإبدال والإحلال هذه تذكر المصادر التاريخية أن عدد الذين تم ترحيلهم من مدينة السامرة وحدها إلى أعالي بلاد النهرين وإلى ميديا تبلغ حسب وثائق سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) - الذي يعتقد أن السامرة سقطت في عصره - تبلغ ٢٧,٢٩٠ إسرائيليًا "[١٧]. وقد حل بها سكان جدد مرحلون من بابل وعيلام وسوريا بواسطة سرجون وأسرحدون في سرو نابالوس ملوك آشور[١٨]. وهناك إشارات إلى أن بعض سكان بلاد النهرين تم تهجيرهم لسكنى بعض المناطق التي غزاها الآشوريون ومن بينها شكيم[١٩].

وقد أدى الغزو الآشوري للشمال الفلسطيني إلى إضعاف البنية السكانية للإسرائيليين في الشمال حيث تسبب الغزو الآشوري في تهجير أعداد كبيرة من الشماليين إلى الجنوب هربًا من السبى الآشوري. ومن ناحية أخرى تم بالفعل سبى أعداد أخرى كبيرة تم تهجيرها إلى بلاد النهرين ويمكن القول أن شتاتًا فعليًا قد وقع بالشماليين أثر في ظروفهم التاريخية فيما بعد فقد كانت هناك أقليات إسرائيلية مشتتة في عمون وسوريا وفينيقية وهناك إسرائيليون استقروا في منطقة حوران وفي منطقة آشور ذاتها، وغيرهم تم تهجيرهم إلى ميديا.

ولم يتوقف هذا التأثير الآشوري عند حد تشتيت الإسرائيليين الشماليين، ولكن كان للشتات الشمالي شأن كبير في تطور اليهودية ذاتها خاصة أن أعداد المشتتين

الشماليين فاقت بكثير أعداد المشتتين من الجنوب[٢٠]. ومن هـذا الآثار اختلاط التراث الشمالي الإلوهيمي بالتراث الجنوبي اليهوي[٢١].

ومن هذا نرى أن الغزو الآشوري لفلسطين في القرن الثامن قبل الميلاد أدى إلى إخلاء الشمال الفلسطيني من الإسرائيليين، وتهجيرهم إجباريًا إلى مناطق متفرقة فيما سماه علماء تاريخ الشرق الأدنى القديم بالشتات الشمالي أي الشتات الذي وقع بسكان الجزء الشمالي من فلسطين، والذين لم يقع بهم التهجير الإجباري هربوا إلى الجنوب الفلسطيني، وأصبح الشمال خاليًا من الإسرائيليين فيما عدا قلة قليلة خضعت للآشوريين بدون مقاومة، حيث أبقى الآشوريون على بعضهم وهجروا بعضهم الآخر، فقد كانت هذه سياسة عامة للآشوريين بصرف النظر عن طبيعة العلاقة بينهم وبين الشعب المغزو، وقد رأينا أنه حتى في حالات عقد الصلح مع الآشوريين وقبول حكمهم لم يتنازل الآشوريين عن هذه السياسة.

وتاريخيًا يمكن القول أن هذا الوضع الخاص بالشمال الفلسطيني استمر ولم يزل بزوال الآشوريين بعد ظهور القوة البابلية الجديدة في بلاد النهرين ومنافستها للآشوريين على حكم بلاد النهرين وتغلبهم أخيرًا على الآشوريين، وإسقاطهم لحكمهم، لكي يبدأ عصر جديد تمامًا في تاريخ الشرق الأدنى القديم وهو عصر البابليين الكلدانيين الذي هو بالنسبة إلى أوضاع الشرق الأدنى وأوضاع فلسطين بالذات ما هو إلا امتداد للعصر الآشوري المنصرم.

ونعود فنلخص من جديد التأثير الآشوري على البنية السكانية للشمال الفلسطيني فنقول إن سياسة تفريغ المنطقة الشمالية من الإسرائيليين بواسطة الآشوريين انتهت إلى تشتت السكان الإسرائيليين في مناطق متعددة في الشرق الأدنى سواء في بلاد النهرين، أو في أجزاء من المنطقة السورية خارج فلسطين، كما أن جماعة من الشماليين فرت إلى الجنوب حيث يهوذا، وأن هذه الجماعات

الفارة أو المهاجرة إجباريًا لم تعد ثانية إلى المنطقة الشمالية خاصة بعد زوال الملك الآشوري، وكذلك استمر الحكم البابلي على نفس سياسة الحكم الآشوري في المناطق المغزوة، وهي سياسة الضم المباشر والتغيير في البنية السكانية فاستبدل السكان الأصليون بسكان آخرين من بلاد النهرين، أو من المناطق المحيطة بفلسطين والواقعة تحت الحكم الآشوري أو البابلي.

هذا بالنسبة إلى الوضع في الشمال، أما الجنوب ففي البداية تمكن من الهروب من مصير الشمال وذلك برفض الدخول في التحالف الذي حدث بين الشمال والآراميين ضد الآشوريين، ولكن هذا الوضع تغير في عهد سنحريب (٧٠٤-٦٨١ ق.م) حين قرر حزقيا ملك يهوذا (٧١٥-٦٨٧ ق.م) عدم دفع الجزية لآشور إحساسًا منه في البداية بهدوء نسبي من جانب سرجون وضعف من جانب ابنه سنحريب، ففي بداية حكمه سمح بظهور تحالف جديد ضد الآشوريين ضم ملك صور والعديد من المدن الفينيقية، وضم كذلك عسقلان وعكا وموآب وأدوم وعمون، وتعهدت مصر بمد يد العون إلى المتمردين ضد الحكم الآشوري في عصر سنحريب، وقد انضم حزقيا ملك يهوذا في الجنوب إلى هذا التحالف.

وأمام هذا التحالف اضطر سنحريب إلى إرساله حملة في عام (٧٠١ ق.م) ورد ذكرها في " العهد القديم " (الملوك الثاني / ١٨: ١٣-١٦) وأيدتها الكتابات المختلفة عن عصر سنحريب نفسه[٢٢]. وقد نتج عن هذه الحملة إسقاط ملك صور وإبداله بملك آخر بعد هزيمة المدينة، وقد أدى سقوط صور إلى إسراع بقية المدن المتمردة إلى إعلان ولائها لسنحريب ودفعها الجزية وكذلك فعلت موآب وأدون وعمون. وواصل سنحريب مسيرته إلى الجنوب حيث يهوذا وعسقلان وعكا كما هزم الجيش المصري الذي خرج لنجدة عكا وأسقط كل المدن الفينيقية[٢٣].

ثم تفرغ سنحريب ليهوذا فدمر أكثر من أربعين من مدنها المحصنة وطبق على سكان هذه المدن نفس النظام الآشوري في التعامل مع أهالي المناطق المفتوحة، حيث قام بتهجير سكان هذه المدن، وفرض حصاراً على حزقيا وبقية جيشه داخل أورشليم، ويقدر عدد المهاجرين في هذه الحملة على يهوذا بمائتي ألف ومائة وخمسين يهوديًا حسب الوثائق الخاصة بسنحريب.

وقد أشارت الحفائر في لاخيش إلى بقايا ما يقرب من (١٥٠٠) جثة يعتقد أنها نتيجة إحدى المذابح التي قام بها سنحريب في المنطقة[٢٤]. وانتهى الأمر بحزقيا إلى عقد صلح مع سنحريب كانت شروطه قاسية ومدمرة ليهوذا حيث أخذت أجزاء من يهوذا وأعطيت لملوك أشدود وغزة، وطالب سنحريب بجزية مضاعفة أرهقت حزقيا في جمعها والذي وهب أيضًا بعض بناته كمحظيات لسنحريب وتم إرسالهن إلى نينوى[٢٥]. وعاد حزقيا إلى التمرد مرة أخرى ضد آشور منتهزًا الأوضاع السياسية الداخلية في بلاد النهرين والمناوئة لحكم سنحريب وطامعًا في المعونة العسكرية المصرية لاسترداد المواقع التي خسرها من يهوذا، وقد بعث إليه سنحريب طالبًا استسلامه، ويأتي رفض حزقيا تعبيرًا عن أخذه بنصيحة النبي إشعيا من ناحية، وعن خوفه من أن يكون الاستسلام نهاية يهوذا والتهجير الكامل لسكانها وإحلالهم بسكان آخرين من ناحية أخرى[٢٦].

وهكذا يتضح أن الغزو الآشوري لكل من الشمال والجنوب الفلسطيني أدى إلى إسقاط الشمال تمامًا وتهجير أعداد كبيرة من سكانها الإسرائيليين، ويكفي أن نذكر أن مدينة واحدة هي السامرة قد تم تهجير (٢٩,٢٩٠) من سكانها إلى بلاد النهرين ومناطق أخرى مثل ميديا وغيرها وأن سكانًا من هذه المناطق الخارجية تم إحلالهم بدلاً من الإسرائيليين المهجرين أو المرحلين من الجزء الشمالي، وبالنسبة للجزء الجنوبي من فلسطين فعلى الرغم من أنه لم يسقط تمامًا في يد الآشوريين

وأن العاصمة الجنوبية ظلت بعيدة عن منالهم إلا أن دماراً كبيرًا قد حل بمناطق متعددة اشتملت على ما يزيد عن أربعين مدنية جنوبية، وأن سياسة التهجير الإجباري والإحلال قد طبقت في هذه المدن التابعة للجنوب. ويكفي أن نشير إلى أن السبى الذي وقع زمن سنحريب بلغ مائتي ألف ومائة وخمسين يهوديًا جنوبيًا حسب وثائق عصر سنحريب فضلاً عن الذين قتلوا في الحروب منهم، ولعل أخطر ما في هذه المسألة التغيرات الجذرية للبنية السكانية للشماليين أولاً ولليهوذيين ثانيًا حيث حل أقوام أجانب في مناطقهم حسب السياسة الآشورية مما أدى إلى نقص ملحوظ في أعداد الإسرائيليين خاصة وزيادة ملحوظة في أعداد الأجانب الوافدين مكانهم، ومن الأمور ذات الدلالة الهامة أيضًا نوعية السكان الذين تم تهجيرهم، فهم يمثلون في الحقيقة صفوة المجتمعين الإسرائيلي واليهودي، حيث لم يترك الآشوريون سوى ضعفاء القوم وأراذلهم الأمر الذي ترك أثره على طبيعة الحياة ذاتها في هذه المناطق التي أصبحت مشلولة بسبب فقدان الطاقة البشرية العاملة من ناحية والفئة المفكرة ذات التأثير الثقافي على المجتمع من ناحية ثانية وقد بلغ من حد تأثيرهم على الوضع السكاني لفلسطين أن اعتبرهم بعض الدارسين وذريتهم القبائل العشرة المفقودة.

الغزو البابلي لفلسطين وأثره على بنيتها السكانية :

لم يتمكن الآشوريين من إتمام غزوهم ليهوذا الجنوبية واضطروا إلى رفع حصارهم عن أورشليم وترك هدف إسقاطها، وذلك بسبب الأوضاع السياسية الجديدة في بلاد النهرين والتي تمثلت في ظهور قوى جديدة منافسة على الحكم من بينها البابليون الكلدانيون (الآراميون) والعيلاميون، بالإضافة إلى ضغط بعض الشعوب الهندوأوربية من الشمال مثل الميديين، وكذلك نمو القوة المصرية من جديد بعد فترة ضعف خلال الحكم الآشوري. وفي عام (٦٥٢ ق.م) واجه الملك

الآشوري آشور بانيبال تمردًا كبيرًا مهددًا للدولة قادة أخوه شمش ــ شوم ــ أوكين في بابل بتأييد من السكان الكلدانيين والعيلاميين وسكان المرتفعات الإيرانية، كما ثارت اضطرابات مماثلة في فلسطين وسوريا بتشجيع من المصريين، واستغلت القبائل العربية في الصحراء السورية هذا الوضع ورغبت في احتواء الولايات الآشورية في شمال فلسطين وفي سوريا وذلك امتدادًا من أدوم ومؤاب شمالاً إلى منطقة ذويح(٢٧).

وقد تمكن آشور بانيبال من قهر هذا التمرد والسيطرة على الموقف، وقد عزز المستوطنات الآشورية في السامرة وفي مناطق أخرى إلى الغرب بمستوطنين من بابل وعيلام كما ورد في نص سفر عزرا، حيث يقول : " وسائر الأمم الذين سباهم أسنفر (أشور بانيبال) العظيم الشريف وأسكنهم مدن السامرة وسائر الذين في عبر النهر وإلى آخره(٢٨) ومن بين هذه الأمم التي يذكرها النص البابليون والعيلاميون والشوشنيون والدهويون والأركويون، والأفرسيون والطرفليون والافرستكيون(٢٩).

وكان آشور بانيبال آخر ملوك آشور الأقوياء، وبعد موته في عام (٦٢٧ق.م) بعشرين عامًا بدأت آشور في السقوط حيث بدأ الميديون تحت حكم سياكسارس (٦٢٥-٥٨٥ ق.م) الهجوم على آشور من ناحية، كما سعى البابليون الكلدانيون إلى الاستقلال عن آشور تحت حكم نبو بولاسر (٦٢٦-٦٠٥ ق.م) مؤسس دولة بابل الحديثة ونجح في ذلك عام (٦٢٦ ق.م) ولم يجد الآشوريون بدًا من طلب العون من مصر التي خشيت التحالف البابلي الميدي فعملت على الحفاظ على آشور كحاجز بينها وبين هذه القوة الجديدة من ناحية وطمعًا في فرض السيادة على فلسطين وسوريه من ناحية أخرى، ولكن هذا لم يمنع من سقوط آشور حيث سقطت عاصمتها آشور في (٦١٤ ق.م) وكذلك سقطت نينوى في (٦١٢ ق.م)(٣٠).

وبالنسبة لفلسطين ينتهي هذا الصراع الدائر بين الآشوريين والبابليين والميديين والمصريين نهاية تراجيدية، فقد وقعت يهوذا تحت السيادة المصرية (٦٠٩-٦٠٥ ق.م) على الرغم من فشل مصر من نجدة آشور خلال حملة (٦٠٩ق.م) وفي عام (٦٠٥ ق.م) هزم نبوخذ نصر البابلي المصريين في قرقميش بالقرب من حماة[٣١]. ومع البداية الفعلية لحكم نبوخذ نصر في (٦٠٤ ق.م) وصل الجيش البابلي إلى الساحل الفلسطيني،و تم تدمير عسقلان، وتمت أيضًا أول عملية تهجير في العصر البابلي الحديث حيث أجبر البابليون العناصر القيادية الرئيسية من سكان عسقلان إلى بابل[٣٢]. وأعلن يهويا قيم ملك يهوذا خضوعه لملك بابل في (٦٠٣ ق.م) وبعد معركة غير حاسمة بين نبوخذ نصر ونيهو فرعون مصر في عام (٦٠١ ق.م) تمرد يهوياقيم على بابل وفي عام (٥٩٨ ق.م) تحرك الجيش البابلي متجهًا إلى يهوذا، وفي نفس العام مات يهوياقيم وحل مكانه ابنه يهوياقين الذي أعلن استسلامه لجيش بابل في (٥٩٧ ق.م) وهنا تحدث ثاني عملية ترحيل إجباري إلى بابل، حيث حمل الملك والملكة الأم وكبار الموظفين و زعماء المواطنين مع أسلاب عظيمة[٣٣]. وعين متانيا (صدقيا) حاكمًا جديدًا بدلاً من يهوياقين، وقدر عدد المسبيين بعشرة آلاف مسبي من أورشليم وحدها : " وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف مسبي وجميع الصناع والأقاليم، لم يبق أحد إلا مساكين الأرض وسبي يهوياقيم إلى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض سباهم من أورشليم إلى بابل وجميع أصحاب البأس سبعة آلاف والصناع والأقيان ألف وجميع الأبطال أهل الحرب سباهم ملك بابل إلى بابل[٣٤].

والملاحظة الأساسية هنا تتعلق بالتغيير الذي طرأ على البنية السكانية للجنوب، فبعد سقوط مدنها الأساسية ضاقت أرضها خاصة بعد ضياع النقب فأصبح

اقتصاد الجنوب مشلولاً وانخفض عدد سكانه. ويقدر ألبرايت عدد سكان الجنوب بمائتين وخمسين ألفًا في القرن الثامن قبل الميلاد انخفضوا إلى نصف هذا العدد بين الأعوام (٥٩٧-٥٨٧ ق.م)(٣٥). ورغم أن عدد المسبيين من " أورشليم " يصل إلى عشرة آلاف في هذه المرة إلا أن نوعية المسبيين تجعل خسارته فادحة. فوفقًا للسياسة البابلية المستمدة من السياسة الآشورية السابقة عليها عادة ما يتم تهجير الفئات أو الطبقات العليا في المجتمع والتي تتكون من موظفي الدولة وأثريائها ورجال الجيش فيها، وكذلك كهنتها أو رجال الدين فيها، وكما رأينا في السامرة بلغ الإسرائيليون المهاجرون البالغون قرابة الثلاثين ألفًا من هذه الفئات السابقة الذكر وتم إعادة توطين هذه الفئات في بلاد النهرين وميديا بينما بقى الضعفاء غير القادرين على المقاومة أو الذين قبلوا الحكم البابلي على الفور(٣٦).

ويؤكد ألبرايت انخفاض عدد سكان " يهوذا " من (٢٥٠,٠٠٠) إلى نصف هذا العدد تقريبًا في الفترة من القرن الثامن إلى عام (٥٨٧ ق.م) الذي شهد خراب أورشليم وترحيل بقية أثريائها وأصحاب الحرف ا فيها إلى بابل، ويشير ألبرايت إلى أن الحفريات في دبير ولخيش توضح فقر هذه المدن المتزايد بعد الضربات البابلية التي تعرضت لهما في عام (٥٩٨ ق.م) وعام (٥٨٧ ق.م).

وهذا الوضع يعتبره ألبرايت سائدًا في كل المدن اليهودية التي غزاها البابليون ويشير إلى أن بقية قادة الجيش الذين لم يحملوا إلى بابل جمعوا البقية الباقية من اليهود وهربوا إلى مصر.

ومن هؤلاء اليهود يقول ألبرايت تكونت الحالية اليهودية في الفانتين قبل الغزو الفارسي في (٥٢٥ ق.م)(٣٧). وفي عام (٥٨٢ ق.م) سبى البابليون مجموعة أخرى من اليهود من ذوي الجاه وأصحاب المهارات(٣٨). ففي سفر أرميا تأكيد على هذا السبى البابلي المتكرر لمجموعات من أفضل اليهود إلى بابل(٣٩). وفي بعض

مواضع من سفر أرميا إشارات إلى أن مجموعات من فقراء اليهود تم أيضًا سبيهم إلى بابل، فالأمر لم يقتصر على أغنياء اليهود والموظفين وأصحاب الحرف بل شمل أيضًا من يسميهم أرميا بمساكين الأرض " أو فقراء الشعب "[٤٠].

وبالإضافة إلى عمليات السبي المتكررة إلى بابل وفرار الكثيرين إلى مصر قسمت يهودا في عام (٥٨٩ ق.م) بين الأدوميين من ناحية وولاية السامرة البابلية من ناحية أخرى[٤١].

ويلخص جون برايت حالة يهوذا بعد خراب أورشليم بأنه تم إخضاع يهوذا لنظام الولايات البابلية، وتم تدمير الأرض تمامًا بما عليها، وخربت مدنها ودمرت كما دمر اقتصادها وقتل سكانها وزعماؤها أو تم تهجيرهم إلى بابل ولهذا زالت دولة يهوذا من الوجود وضمت أراضيها إلى الولايات المجاورة كالسامرة وأدوم[٤٢].

أثر السبي الآشوري والبابلي على الوضع السكاني في فلسطين :

بعد هذا العرض لأحداث السبي الآشوري والسبي البابلي نركز في الصفحات التالية على الآثار المباشرة لهذين السببين على الوضع السكاني في فلسطين، ونوجز هذه الآثار فيما يلي :

١- أن سبي اليهود إلى آشور وبابل في أعداد ضخمة أدى إلى تخفيض شديد في نسبة عدد السكان اليهود في كل من الشمال الفلسطيني والجنوب الفلسطيني (إسرائيل الشمالية ويهوذا الجنوبية).

٢- أدت سيادة إخلاء مدن الشمال من سكانها اليهود وإحلال سكان من خارج فلسطين (بلاد النهرين وميديا وسوريا) إلى حدوث اختلاط في البنية السكانية للمنطقة الشمالية واندماج تام للمستوطنين الجدد الذين قدموا إلى الشمال

الفلسطيني ومعهم عبادتهم وعاداتهم وتقـــاليدهم الجديـــدة والغريبـــة علـــى المنطقة، مما أدى إلى إحداث تغيير في الشكل العام للحياة فيـــها ولـــم تعـــد الحياة فيها إسرائيلية خالصة خاصة لو تذكرنا الأعـــداد الضخمـــة لليـــهود المهجرين إلى آشور وميديا والبالغ عددهم من مدينة السامرة وحدها قرابـــة ثلاثين ألفًا.

٣- أدت سياسة إخلاء مدن الجنوب من السكان اليهود وعدم إحـــلال البـــابليين لسكان جدد مكانهم من خارج فلسطين ــ كما فعل الآشوريون في الشـمال ــ إلى انخفاض شديد في عدد السكان وتدهور شديد للحياة في الجنوب بســـبب تهجير أعداد ضخمة من الطاقـــة البشـــرية العاملـــة كأصحـــاب الحـــرف والصناعات والجنود ورجال الدين، وترك ضعفاء القوم وفقرائهم، وكما ذكـو ألبرايت أن سكان الجنوب نقصوا من (٢٥٠,٠٠٠) إلى نصف هـــذا العـــدد تقريبًا، كما أن مدينة أورشليم سبى منها قرابة عشـــرة آلاف مـــن أفضـــل سكانها.

٤- أن التركيز على تهجير نوعية معينة من السكان وهي الفئات النشطة العاملـــة والتي لا غنى للمجتمع عنها، كرجال الجيش وأصحاب الحـــرف والأغنيـــاء أدى إلى حدوث تدهور شديد في الأنشطة الإنسانية وإلى شبه توقـــف لحيـــاة السكان الباقين والذين كانوا في غالبيتهم ضعفاء فقراء، وبهذا فقـــد الجنـــوب الطاقة البشرية العاملة فيه.

٥- أدى تهجير الأغنياء من اليهود إلى آشور وبابل إلى شـــبه توقـــف للحيـــاة الاقتصادية في فلسطين شمالاً وجنوبًا وكان وضع الجنوب أشد فقـــرًا لعـــدم استبدال المهجرين بمستوطنين جدد يمثلون طاقة ســـكانية جديـــدة ومقومًـــا

اقتصاديًا جديدًا، فالهجرة الإجبارية للأغنياء أوقفت النشاط الاقتصادي والمالي في الجنوب خاصة.

٦- نشأة نظام الاستيطان ربما لأول مرة في تاريخ فلسطين وذلك بخلق مستوطنات للوافدين الجدد من بلاد النهرين وغيرها، وذلك بإنشاء مستوطنات لليهود خارج فلسطين سواء في بلاد النهرين أو في ميديا أو سوريا، كما تم توطين اليهود الفارين من الحكم البابلي إلى مصر على الحدود الشمالية لمصر ومنهم من تم توطينه في مصر حيث نشأت مستوطنة الفانتين في العصر الفارسي (وبالتحديد بعد هزيمة مصر من فارس في ٥٢٥ ق.م) وهي بلا شك نتيجة من نتائج السبي البابلي.

٧- إن من أهم نتائج السبي البابلي فقدان الوجود السياسي والقومي لليهود خاصة في الجنوب وكذلك فقدان الأرض التي هي من علامات أو مقومات الوجود السياسي القومي، حيث ضمت أرض الجنوب إلى ولاية السامرة في الشمال وإلى ولاية أدوم التابعتين للحكم البابلي، فلم يعد ليهوذا كيان سياسي له حدود جغرافية واضحة.

٨- من أهم النتائج الأخرى للسبي البابلي بداية ظاهرة الشتات اليهودي العام والتي يربطها المؤرخون عادة بالسبي عام (٧٠م) ولكن بدايتها الحقيقية في التاريخ مرتبطة بآثار السبي البابلي الذي أدى إلى نشأة مجتمعات يهودية خارج فلسطين مثل أدوم ومؤاب وعمون التي فر إليها عدد كبير من اليهود الذين تم توطينهم فيها بواسطة البابليين، ولذلك فبداية الشتات العام الحقيقية وجذورها في التاريخ إنما تعود حقًا إلى فترة السبي البابلي (٥٨٦-٥٣٨ق.م).

السبي الروماني والشتات اليهودي العام :

يعتبر السبي الروماني الحلقة الأخيرة من حلقات إخلاء فلسطين من السكان اليهود في التاريخ القديم، وهي أشد هذه الحلقات تأثيرًا على الوضع السكاني في فلسطين، فالشتات العام الذي نتج عن السبي الروماني في عام (٧٠م) استمر تأثيره فعالاً حتى القرن العشرين الميلادي.

والحديث عن السبي الروماني سيضطرنا إلى العودة إلى الوراء لنرى مسيرة التاريخ السياسي واليهودي بعد السبي البابلي الذي انتهى عام (٥٣٨ ق.م) بعد سقوط دولة بابل الكلدانية عل يد الفرس، والحقيقة أن العصر الفارسي كان بالنسبة لليهود عصرًا مختلفًا تمامًا عن العصر البابلي السابق إليه، فبعد سقوط بابل على يد قورش في عام (٥٣٩ ق.م) أصدر قورش في عام (٥٣٨ ق.م) مرسومًا بعودة المسبيين من بابل إلى فلسطين وإعادة بناء الهيكل واعتبر هذا المرسوم وجهًا من وجوه تسامح قورش العام تجاه الخاضعين لحكمه وهو تسامح قوبل به البابليون أنفسهم حين حافظ لهم قورش على مدنهم وعلى عبادتهم وآلهتهم بل وقد بلغ تسامحه حد المشاركة العامة في عبادة مردوك وكرمز من ناحية أخرى إلى أن حكم قورش لبابل حكم شرعي وبانتخاب إلهي[٤٣].

ولقد كان رد الفعل اليهود في بابل وآشور تجاه مرسوم العودة ردًا سلبيًا لأن معظمهم قد استقر في مواطنه الجديدة في بلاد النهرين ومارس فيها حياته العادية، وكذلك كان لطول الرحلة من بابل إلى فلسطين وخطورتها وتكاليفها الباهظة أثر في تثبيط حماس الراغبين إلى العودة[٤٤]. هذا بالإضافة إلى أن أوضاع الجنوب بالذات لم تكن مرضية، كما أن استقبال حكام ونبلاء السامرة العائدين لم يكن مشجعًا فقد نظر السامريون إلى أراضي الجنوب على أنها أصبحت من إقليمهم، ولذلك لم يرحبوا بالعائدين ولم يتحمسوا لإعادة بناء أورشليم[٤٥]. وبعد قرن تقريبًا من قرار

العودة لم يزد سكان الجنوب عن اثنين وأربعين ألفًا من اليهود الأحرار بالإضافة إلى سبعة آلاف عبد.

ومن بين هذا العدد عاش ما يقرب من خمسة عشر ألفًا في أورشليم وحولها[٤٦]. وهي زيادة ملحوظة عما كان عليه الوضع عام (٥٢٢ ق.م) حيث لم يزد سكان الجنوب عن عشرين ألفًا[٤٧]. وقد واجه العائدون صعوبات كبيرة من بينها الفقر والمجاعة وكراهية السامريين لهم، وعدم ترحيب السكان بهم وعدم السماح لهم بالاستقرار في أرض اعتبرها المقيمون الأصليون أرضهم وقد زاد من الصراع بين العائدين بأنهم يمثلون " إسرائيل الحقة " فانعزلوا عن السامريين وغيرهم واعتبروهم من النجس، خاصة بسبب تأثرهم بالبيئة الوثنية المحيطة بهم[٤٨]، واختلاطهم بالأغيار عن طريق الزواج المختلط[٤٩].

وهكذا لم تحقق العودة التي سمح بها قورش في نفس الوقت الذي ازداد فيه اليهود تمسكًا بالحياة في بلاد النهرين وفي بلاد فارس بعد ازدهار مجتمعاتهم هناك واندماجهم الفعلي بسبب التسامح الذي ساد العصر الفارسي خاصة تجاه اليهود في أرجاء الإمبراطورية الفارسية، واستمرت بابل كمركز رئيسي للحياة اليهودية غطى على المركز القديم في أورشليم والسامرة اللتين استمرتا على عداوتهما القديمة والتي أصبحت أساسية انتهت إلى الانفصال الكلي للسامريين دينيًا عن بقية اليهود، وظهورهم كفرقة دينية يهودية مستقلة لا تعترف إلا بالتوراة وإصرار الجنوبيين على أنهم يمثلون " إسرائيل الحقيقية "، وهكذا تتأكد العداوة السياسية القديمة من خلال الفصل الديني للسامريين عن بقية اليهود، وهكذا فمع نهاية الحكم الفارسي ومن خلال جماعتين متعارضتين، السامريين في الشمال ويهود الجنوب، أكدت القطيعة الدينية الصراع السياسي القديم بينهما. كما انقسم يهود الداخل أيضًا إلى فريقين وهما اليهود الذين لم يتم سبيهم واليهود المسبيون العائدون وهؤلاء نشأ بينهم

أيضًا صراع سياسي بسبب مزاحمة العائدين الموجودين في الأرض والأنشطة المختلفة، وصراع ديني سببه إحساس العائدين بأنهم أهل الدين الحقيقي بينما دين الموجودين في الداخل قد فسد بسبب الاحتكاك بالوثنية وفقدان الحماس الديني الذي كان عليه العائدون.

وقد كان العصر اليوناني بالنسبة إلى اليهود عصر مزيد من التهجير لليهود خارج فلسطين. ففي عام (٣٢٠ ق.م) سقطت أورشليم في يد بطليموس الذي حمل معه إلى مصر عدداً كبيرًا من الأسرى اليهود الذين زاد عددهم بالآلاف في الحملات اليونانية التالية وعملوا كعبيد أو خدم في جيش وبلاط بطليموس،و قد حررهم بطليموس الثاني[٥٠]. ويمكن أن نقول إن مركزًا يهوديًا جديدًا خارج فلسطين بدأ يجذب إليه أعداداً ضخمة من يهود فلسطين في العصر اليوناني وهذا المركز هو الإسكندرية التي تحولت فيما بعد إلى مركز منافس لأورشليم والسامرة فيما يتعلق بالحياة الثقافية والدينية لليهود، وفي الإسكندرية تحدث اليهود باليونانية وتركوا العبرية والآرامية وقاموا بنشاط ديني كبير من أبرزه ترجمة العهد القديم إلى اليونانية، وهي الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية حتى يتمكنوا من ممارسة حياتهم الدينية باليونانية.

وفي عهد انطيوخوس ايفانس صدر مرسوم في عام (١٦٨ ق.م) بعد الاستيلاء على أورشليم بمنع اليهود من ممارسة دينهم والحكم بالإعدام على من يفعل ذلك، وكان هدف ذلك دمج كل الأقوام الخاضعة للحكم اليوناني في الثقافة اليونانية والديانة اليونانية، وأدخلت الآلهة اليونانية إلى المعبد في أورشليم، وقدمت الأضحيات الوثنية على المذبح اليهودي، وأقيمت مذابح وثنية، وحرفت نسخ التوراة وأعدم حاملوها وأجبر اليهود على أكل لحم الخنزير[٥١]. إلى غير ذلك من ألوان الاضطهاد التي تركت أثرًا كبيرًا في اليهودية كدين، والتي أدت فيما بعد إلى ظهور

المكابيين ومقاومتهم للاضطهاد اليوناني وتمكنهم في عام (١٦٤ ق.م) من تطـــهير المعبد وإعادة الحياة الدينية إليه[٥٢].

كانت هذه بعض الأحداث الهامة التي وقعت باليهود بين نهاية الحكم الفارسـي مروراً بالحكم اليوناني وحتى نهاية الحكم الروماني وهي فترة مضطربة في التـاريخ السياسي لليهود وكذلك في تاريخهم الديني، وقد حـدث أول تدخـل رومـاني فـي فلسطين على يد بومباي الذي تغيرت على أيامه السياسة الرومانية واتجـهت نحـو التوسع وفرض السيادة، ووقعت أورشليم تحت الحصار الذي فرضه بومباي ومـات فيه اثنا عشر ألفًا من اليهود، واستمرت العلاقة بين الرومـان واليـهود مضطربـة وقلقة إلى أن تمكن فسباسيان من إخضاع فلسطين في (٦٧-٦٨ ميلادية) ثم تمكـن ابنه تيتوس من إسقاط أورشليم وتخريـب الـهيكل عـام (٧٠م) والـذي يعتـبره المؤرخون بداية لما يسمى بالشتات اليهودي العام.

هذا وقد قدر بعض المؤرخين اليهود الذين قتلوا في الحرب الرومانية وفـي الصراع ضد الحكم الروماني وهي أعداد ضخمة توضح نسبة أو درجة الانخفـاض الشديد في سكان فلسطين من اليهود في العصـر الرومـاني، فـالمؤرخ اليـهودي جوزيفوس حدد عدد اليهود الذين قتلوا أو أسروا بواسطة تيتوس على أنهم مليـون ومائة وسبعون ألفًا[٥٣]. بينما أعطى المؤرخ تاكيتوس عدداً مغايرًا وأقل بكثير مـن تقدير جوزيفوس حيث حددهم تاكيتوس بستمائة ألف يهودي[٥٤]. هذا ويذكر المـؤرخ ديوكاسيوس أن حرب بركوخبا ضد الرومان كلفت اليهود خمسمائة وثمانين ألفًا مـن اليهود الذين قتلوا في الحرب بخلاف هؤلاء الذيـن مـاتوا جوعًـا أو حرقـوا أو مرضوا، ويؤكد ديوكاسيوس أن " يهوذا " بأكملها أصبحت صحراء جرداء، ويقـر أحد المؤرخين اليهود المعاصرين بأن خسائر حروب تراجان لا يمكن أن تحصـى وهي خسائر امتدت إلى يهود مصر وقبرص وأثرت تأثيرًا شديدًا في حجـم يـهود

مصر بينما محت من الوجود تمامًا يهود قبرص، وأن إجمالي خسائر اليهود من القتلى وضحايا الجوع والمرض خلال الفترة من (٦٦م إلى ١٣٥م) لابد وأن تكون خسائر هائلة لا يمكن إحصاؤها،و يعتبر هذه السنوات أفظع سنوات الاضطهاد الروماني لليهود على حد تعبيره[٥٥]. وبالإضافة إلى هذا كله فإن أعداداً من اليهود اعتبروا من المفقودين بالنسبة إلى الجماعة اليهودية، فهناك أعداد من اليهود الذين وقعوا أسرى في يد الرومان وتم بيعهم في الأسواق الرومانية، وكذلك فقد كثير من الأطفال الذين تربيتهم في بيئة غير يهودية فأصبحوا فيما بعد لا يحسبون من الجماعة اليهودية[٥٦].

وبالإضافة إلى هذه الخسائر في الأعداد اليهودية الساكنة في فلسطين زمن الحكم الروماني فإن الخسائر السياسية كانت هي الأخرى عظيمة، ومن أولها أن فلسطين في العصر الروماني أصبحت مدمرة سياسيًا واقتصاديًا ودينيًا، وتحولت أورشليم إلى مدينة للجنود الرومان مع عدد قليل من المدنيين اليهود القائمين على خدمة الرومان[٥٧].

والأهم من هذا كله أن السبي الروماني في عام (٧٠م) وخراب أورشليم وما تبع ذلك السبي من خروج يهودي من فلسطين بسبب الاضطهاد الروماني المتواصل.. كل هذا أدى في النهاية إلى التشتت اليهودي في بلدان الإمبراطوريات الرومانية في الغرب والشرق، وتكونت على أساس من السبي الروماني الجماعات أو الأقليات اليهودية في اليونان وإيطاليا وإسبانيا وفي كل الشمال الإفريقي، وفي مصر بطبيعة الحال، وكذلك البلدان الأوربية المختلفة التي كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية[٥٨]، لكي تضاف هذه الجماعات إلى ما تسبب فيه السبي الآشوري والبابلي قديمًا من تجمعات يهودية في بلاد النهرين وبلاد فارس وميديا وشبه الجزيرة العربية التي بلا شك كانت هدفًا لجماعات يهودية هاربة من السبي

الآشوري والبابلي. كما تسبب السبي الروماني في هجرة جماعات جديدة من اليهود إلى شمال شبه الجزيرة العربية ومنها إلى جنوب شبه الجزيرة العربية، وربما من شبه الجزيرة العربية إلى الحبشة، حيث وجدت جماعة يهودية باسم الفلاشا منذ زمن بعيد، ومن بلاد فارس هاجرت جماعات يهودية إلى الهند والصين، وهكذا ظهرت جماعات يهودية بعد السبي الروماني انتشرت في معظم بلدان العالم القديم تركزت فيما بعد بين بلدان العالم المسيحي في الغرب وبلدان العالم الإسلامي في الشرق.

أما فلسطين فقد فقدت أهميتها كموطن أو مستقر أصلي للسكان اليهود، واضمحل عدد اليهود الساكنين فيها[٥٩] وضعف دورها كمركز مهم للحياة اليهودية خاصة بعد ظهور مراكز للتجمعات اليهودية أكثر ازدهاراً وحيوية من فلسطين، كما كان الحال في مصر وبلاد النهرين وإيطاليا وإسبانيا وإيران، وانتقال مركز الحياة اليهودية إلى خارج فلسطين خاصة بعد أن تحولت المسيحية إلى قوة سياسية في القرن الرابع الميلادي، وأصبحت الجماعة اليهودية تمثل أقلية تعيش في ظل الحكم المسيحي سواء في فلسطين أن في بلدان العالم المسيحي في أوربا، وكذلك الحال بعد ظهور الإسلام حيث تحولت فلسطين إلى بلد عربي مسلم.

حاولنا في الصفحات السابقة دراسة الوضع السياسي لليهود في فلسطين في التاريخ القديم الذي وقفنا فيه عند عصر العصر الروماني، وكان هدف هذه الدراسة إثبات ضعف الوجود السياسي لليهود في فلسطين من خلال الأدلة التاريخية والبيانات الإحصائية التي نعتقد أن فيها رداً حاسمًا على دعاوى الصهيونية التي تحاول ربط الكيان الصهيوني الحالي بجذور من التاريخ السياسي والديني لليهود في الماضي، وأثبتنا أن هذه الجذور واهية، وأن فلسطين عربية طوال تاريخها وأن الوجود اليهودي فيها وجود طارئ، وأن التاريخ السياسي لليهود في فلسطين القديمة

تاريخ قلق غير مستقر ولم يضرب بجذوره في الأرض الفلسطينية التي ظلت واستمرت عربية والأدلة التاريخية التي قدمنها نلخصها فيما يلي :

١- القاعدة السكانية الأساسية لفلسطين قاعدة عربية، فسكان فلسطين تكونوا في الأصل من هجرات عربية متوالية من شبه الجزيرة العربية، ومن بين هذه الهجرات، الهجرة التي كونت العبريين أنفسهم فهم أيضًا أصولهم عربية مما يؤكد عروبة فلسطين في التاريخ القديم حتى على مستوى العبريين أنفسهم.

٢- أنه من القرن الثامن عشر إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد تم خروج العبريين من فلسطين في هجرة جماعية إلى مصر لأسباب اقتصادية، وكان المهاجرون من صفوة القوم ورؤساء قبائلهم التي تكونت فيما بعد والذين نقلوا الحياة العبرية من فلسطين إلى مصر منذ عصر يعقوب ويوسف عليهما السلام وإلى زمن الخروج من مصر، وخلال هذه الفترة لم تكن هناك حياة عبرية تذكر في فلسطين.

٣- إن القرون من الثالث عشر إلى العاشر قبل الميلاد شهدت فترة عدم استقرار في حياة العبريين (الإسرائيليين)، فهي تشتمل على فترة الخروج من مصر والتيه في سيناء وصراع الدخول إلى كنعان على المستويات السياسية والدينية والحضارية.

٤- إن فترة الوجود والاستقرار الوحيدة في حياة الإسرائيليين في فلسطين هي فترة الدولة المتحدة التي نشأت في عصور شاؤول وداود وسليمان وتغطي تاريخيًا الفترة من (١٠٣٠-٩٢٣ ق.م) أي فترة مائة عام تقريبًا وانقسمت بعدها إلى دولتين " إسرائيل الشمالية " و" يهوذا الجنوبية " وسقطت الأولى عام (٧٢١ ق.م) على يد الآشوريين وسقطت الثانية عام (٥٨٦ ق.م) على يد البابليين.

٥- والفترة من (٩٣٣ إلى ٥٨٦ ق.م) فترة صراع شديد بين الدولتين المنشقتين عن دولة داود وسليمان، وهي فترة حروب متواصلة بين الإسرائيليين في الشمال والجنوب كما أنها فترة انفصال ديني كبير بين الشماليين والجنوبيين، فهي إذن فترة اضطراب وعدم استقرار على المستويين السياسي والديني، وأخيرًا يضع الآشوريون نهاية الشماليين ويضع البابليون نهاية الجنوبيين.

٦- لم يضع الآشوريون والبابليون نهاية الدولتين فقط، ولكنهما سبوا أهلها إلى آشور وبابل وغيرهما من بلاد النهرين، كما أتوا بسكان جدد من هذه المناطق ليستوطنوا أماكن الإسرائيليين في الشمال بينما ترك الجنوب خاليًا بعد تهجير سكانه مما أضعف البنية السكانية اليهودية في فلسطين عامة، بانتقال الحياة اليهودية إلى بلاد النهرين وهروب أعداد كبيرة إلى بلاد أخرى مثل مصر وشبه الجزيرة العربية.

٧- فترة الحكم الفارسي واليوناني كانت أيضًا فترة اضطراب وقلق بالنسبة إلى اليهود، ولم يستجب كثيرون لقرار العودة الفارسي لأسباب متعددة، كما أن العصر اليوناني أتى بمزيد من الهجرة اليهودية خارج فلسطين خاصة إلى مصر والشمال الإفريقي فضلاً عن التأثير الكبير للثقافة اليونانية في اليهودية.

٨- في العصر الروماني حدث الشتات العام لليهود وضعفت البنية السكانية لليهود في فلسطين عامة بسبب كثرة أعداد القتلى نتيجة الحروب مع الرومان خاصة زمن تيتوس وتراجان والتي وصلت زمن تيتوس وحده إلى ستمائة ألف يهودي حسب إحصاء المؤرخ تاكيتوس ومليون ومائة وسبعة آلاف وفقًا لحساب جوزيفوس، بينما حرب بركوخبا ضد الرومان كلفت اليهود خمسمائة وثمانين ألف نسمة، وانتهى الأمر إلى تحول فلسطين إلى

بلد خالٍ من اليهود، وتحول أورشليم إلى مدينة رومانية يسكنها جنود الإمبراطورية الرومانية.

٩- أنه خلال هذا التاريخ الطويل بأزماته المتعددة بالنسبة إلى الوجود اليهودي في فلسطين لم تتقطع موجات الهجرة العربية من شبه الجزيرة العربية إلى المنطقة السورية وخاصة إلى فلسطين فظروف شبه الجزيرة العربية لم تتغير خلال هذه العصور، وظلت منطقة طرد لسكانها الذين استقبلتهم المنطقة السورية وبلاد النهرين دون توقف، وهكذا فالنقص في نسبة السكان اليهود بسبب الظروف السابقة الذكر يقابله زيادة مطردة في نسبة السكان العرب بسبب استمرار الهجرة العربية من ناحية، وبسبب عدم تعرض السكان العرب في المنطقة السورية وفي فلسطين خاصة لما تعرض له السكان اليهود من سبي وتشتيت، بل على العكس لقد استفاد السكان العرب من هذه الظروف التاريخية فحلوا في مناطق عديدة من تلك التي تم إخلاؤها من السكان اليهود كما حدث مثلاً بعد سقوط يهوذا من ضم أراضيها إلى ولاية السامرية من ناحية وإلى ولاية أدوم من ناحية أخرى.

وهكذا فضعف الوجود اليهودي في فلسطين كان دائمًا في صالح زيادة ونمو الوجود العربي فيها.



الفصل الثالث

عروبة القدس
في التاريخ القديم



عروبة القدس في التاريخ القديم

لا شك في أن عروبة القدس في التاريخ القديم أمر مرتبط ارتباطـًا عضويًا بعروبة فلسطين في التاريخ القديم. ومن المعروف أن مدينة القدس مدينة كنعانية أنشأها اليبوسيون، وهم جماعة من الكنعانيين العرب، ولذلك سميت المدينة باسم "يبوس " قبل أن يتغير اسمها إلى " أوروساليم " والكنعانيون هم أجداد الفلسطينيين الذين سكنوا أرض كنعان.

والكنعانيون عرب لأن موطنهم الأصلي في شبه الجزيرة العربية حيث تكونوا كشعب عن إحدى الهجرات العربية (السامية) من شبه الجزيرة العربية إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد. ويرجح أنهم قدموا من موطنهم متجهين إلى بلاد العرب الصخرية في شمال الحجاز، ومنها دخلوا إقليم النقب ليأخذوا طريقهم بمحاذاة الساحل إلى لبنان وسوريا. ويؤكد سباتينو موسكاتي على خروج موجات بشرية من شبه الجزيرة العربية في هجرات تاريخية معروفة أدت إلى تكوين الشرق العربي القديم. وكان الدافع إلى خروج العرب الساميين من موطنهم الأصلي في شبه الجزيرة العربية الجفاف والقحط الذي كانت تتعرض له المنطقة فضلاً عن ظروفها الجغرافية والمناخية الصعبة التي جعلت منها منطقة طرد لسكانها وجعلت من المناطق الزراعية المحيطة بها في الهلال الخصيب مناطق جذب للمهاجرين[1]. ويعتبر بعض العلماء أن الكنعانيين يمثلون الموجة الثانية من الموجات العربية السامية التي خرجت من شبه الجزيرة العربية متجهة إلى الشام وسواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية. وأنها بدأت خروجها في وقت متأخر عن الرأي السابق. فهي قد خرجت منذ أوائل الألف الثاني قبل الميلاد وأسست على الساحل الشرقي للبحر المتوسط مدنًا تجارية أهمها صيدا وصور

وجبيل وبيروت وأروادوراس شمرا وقد ساهم اليونـانيون بـالفينيقيين. وقـد بنـى الكنعانيون حضارة بحرية عظيمة، وانتشرت مستعمراتهم في حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي إفريقيا وآسيا الصغرى وإسبانيا. واخترعوا الكتابة وعنهم انتقلت إلـى اليونان وبقية الشعوب(٢). وإلى هذه الموجة الكنعانية ينتمـي الأوجريتيـون الذيـن تغلغلوا في الشمال السوري وأسسوا مدينة أوجاريت المعروفة باسم " رأس شـمره " الواقعة إلى الشمال من اللاذقية، ووصلت عنهم نقوش هامة تعـرف باسـم نقـوش رأس شمره ولغة عربية عرفت باسم اللغة الأوجرتية.

ويتبع الموجة الكنعانية أيضًا المؤابيون الذين استقروا فـي شـرقي الأردن، والعبريون الذين استوطنوا في فلسطين في القرن الثالث عشر الميلادي، وكانوا قبـل وصولهم إلى أرض فلسطين (كنعان) مجموعة من العشائر السامية البدوية المتنقلـة حول المدن العراقية الكبرى مثل أور في جنوب العراق وماري في وسطه، وحـوان في شماله. وقد ذكرت التوراة هجرة إبراهيم عليه السلام مـن أور وعبـوره نـهر الفرات إلى بادية الشام ولذلك تسميه التوراة " أبرام العبراني " وعلى هذا الأسـاس سميت الجماعة بالعبريين حسب الفهم التوراتي، والحقيقة أن إبراهيم عليـه السـلام عربي ومن ذريته نشأ العرب الإسماعيليون الذين استقروا في شمال شبه الجزيـرة ثم انتشروا داخلها وإليه أيضًا ينتسب الإسرائيليون الذيـن يعـودون إلـى إسـحاق ويعقوب عليهما السلام.

هكذا انتشر الكنعانيون في جميع أنحاء سوريا وفلسـطين ويبـدو أنـه بعـد الغزوات الآرامية والإسرائيلية رجعت القبائل الكنعانية على أعقابها من داخل البـلاد إلى شاطئ البحر، وشغلت المنطقة الممتدة من الأسكندرونه إلى عكا، وكانت المـدن المنشرة من حيفا إلى غزة تحت سيادتهم قبل أن تفتحها القبائل الفلسطينية.

وقد ذكرنا أن اليونانيين أطلقوا على الكنعانيين اسم الفينيقيين كاسم شامل لسكان السواحل أولاً وسكان المناطق الداخلية أيضًا فيما بعد. ولم يعرف الكنعانيون بهذا الاسم بين الساميين. وقد أطلق عليهم بنو إسرائيل اسم " الكنعانيين " وسموا الأرض بأرض كنعان. وكانوا يسمون القبائل الكنعانية أحيانًا بأسماء مدنها أو مناطقها مثل أهل صور، وأهل صيدا، وأهل جبيل، وأهل أرواد وليس هناك ما يدل على وجود هذه المدن ومعها مدينة أورشليم قبل قدوم الكنعانيين إلى المنطقة بما يعني أن كل هذه المدن ومن بينها أورشليم مدن كنعانية خالصة(٣).

تاريخ القدس من بدايته إلى السبي البابلي :

ينقسم تاريخ القدس إلى عدة عصور تتبع العصور التي مرت بها فلسطين في تاريخها القديم. فتاريخ القدس جزء لا يتجزأ من تاريخ فلسطين وقد خضعت المدينة لما خضعت له فلسطين من أوضاع سياسية وعسكرية في التاريخ القديم. فقد وقعت فلسطين تحت السيادة الكنعانية العربية (٢٠٠٠-١٠٠٠ ق.م) وتحت سيادة بني إسرائيل في عصر مملكة داود وسليمان عليهما السلام. ثم تحت سيادة مملكة يهوذا في جنوب فلسطين بعد انقسام مملكة سليمان إلى مملكة إسرائيل الشمالية وعاصمتها السامرة، ومملكة يهوذا الجنوبية وعاصمتها أورشليم. وقد وقعت المملكة الشمالية تحت الغزو الآشوري في عام ٧٢٢ ق.م.

وتتعرض أورشليم للحصار الشديد من جانب سنحاريب ملك آشور (٧٠٥-٧٨١ق.م) ضمن محاولته غزو مملكة يهوذا التي بقيت بعد قضاء شلمنصر الخامس وسرجون على إسرائيل الشمالية. ولم يرفع سنحاريب الحصار عن أورشليم إلا بعد أن تسلم الجزية من ملك يهوذا. ولم يتم الآشوريون غز يهوذا بأكملها واضطروا إلى الانسحاب منها وفك حصارهم لأورشليم بسبب التهديدات التي تلقتها دولة آشور

في الداخل في العراق مما اضطرها إلى التخلي عن غزواتها والعـودة إلـى بـلاد النهرين لمقاومة المناوئين لحكمها في الداخل.

وبسقوط دولة آشور عام ٦١٢ ق.م يتولى البابليون الكلدانيـون حكـم بـلاد النهرين ويبدأون غزواتهم للشرق الأدنى القديم. وتقع فلسطين من جديد تحت الغـزو البابلي، ويكمل البابليون غزو يهوذا في عصر نبوخذ نصر الـذي اسـتولى علـى أورشليم ٥٩٧ ق.م وفي ٥٨٦ ق.م يعاود نبوخذ نصر غزو أورشليم بنفسه، فاحتلـها وخربها، وأحرق الهيكل وسبى أهلها إلى بابل وتقع فلسطين بعد ذلك تحـت الحكـم الفارسي عام ٥٣٨ ق.م، وتحت الحكم اليوناني عام ٣٣٢ ق.م وتقع تحـت الحكـم الروماني من ٦٣ ق.م ويتم تدمير أورشليم بواسطتهم عـام ٧٠م ويسـتمر الحكـم الروماني الوثني إلى ٣٢٣م حتى حكم قسطنطين ويستمر الحكم المسيحي إلى الفتح الإسلامي لفلسطين ٦٣٨م. فيما عدا الفترة من ٦١٤-٦٢٨م حيـث وقعـت تحـت الحكم الفارسي ويستمر الحكم الإسلامي من ٦٣٨م إلى الغـزو الصليبـي ١٠٩٩-١١٨٧م. وتعود إلى الحكم الإسلامي من ١١٨٧-١٢٢٩م ثم تسقط من جديد تحـت الحكم الصليبي ١٢٢٩-١٢٣٩م لتعود من جديـد تحـت الحكـم الإسـلامي مـن ١٢٣٩إلى عام ١٩١٧م حيث تقع تحت الانتداب البريطاني إلى عام ١٩٤٨م حيـث وقعت تحت الحكم الإسرائيلي حتى وقتنا الحالي.

أولاً : تاريخ القدس القديم في الفترة العربية الكنعانية ٢٠٠٠-١٠٠٠ق.م:

مدينة أورشليم مدينة عربية النشأة والتطور فقد أسسـها العـرب الكنعـانيون الذين سكنوا فلسطين في الألف الثالث قبل الميلاد. وقد قدم إليها العرب السـاميون في هجرتين كبيرتين، الأولى في بداية الألف الثالث قبل الميلاد، والثانية في بدايـة الألف الثاني قبل الميلاد. والمؤكد أنه عندما قدم الإسرائيليون إليها في القرن الثـاني

عشر قبل الميلاد كان الشعب الموجود أصلاً شعبًا عربيًا أخذ عنه الإسرائيليون لغته ومظاهر كثيرة من ديانته وحضارته(٤).

ويعود أقدم أثر يحمل اسم مدينة أوروساليم إلى الفترة ما بين ٢٠٠٠-١٩٠٠ق.م. وقد عثر على هذه القطعة الأثرية عام ١٩٢٦م ويظهر الاسم مرة أخرى في إحدى الرسائل التي تم اكتشافها ضمن مجموعة من الألواح علم ١٨٨٧م في تل العمارنة في مصر الوسطى. وتعود هذه الألواح إلى عام ١٣٥٠ ق.م وفي هذه الرسائل يرد اسم ملك أورشاليم عبد خيبا الذي وجه هذه الرسائل إلى فرعون مصر أمنحوتب الرابع أحد ملوك السلالة الثامنة عشرة والمعروف باسم " أخنلتون " الداعي إلى التوحيد والذي حكم مصر من ١٣٧٥-١٣٥٨ ق.م وفي هذه الرسائل يطلب ملك أورشاليم " عبد خيبا " المساعدة من ملك مصر في صد هجمات أهل البادية " الخبيرو " ويقول نص الرسالة في جزء منه إلى أن هذه الأرض، أرض أورساليم، لم يعطني إياها أبي ولا أمي ولكن أيدي الملك القوية هي التي ثبتتني في دار آبائي وأجدادي، ولك أكن أميرًا بل جنديًا للملك وراعيًا تابعًا للملك ... منحت ملكية الأرض أوروسالم إلى الملك إلى الأبد ولا يمكن أن يتركها للأعداء(٥).

وتشير هذه الآثار والوثائق إلى أن المدينة عرفت بالاسم أوروسالم منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد. ويؤكد كتاب العهد القديم هذا الاستخدام للاسم وأوروسالم في وقت مبكر يعود إلى بدايات الألف الثاني قبل الميلاد فقد ورد لأول مرة في سفر التكوين من التوراة في الروايات المرتبطة بإبراهيم عليه السلام حيث يذكر النصر التوراتي اسم ملكي صادق ملك " ساليم " الذي كان في استقبال إبراهيم عليه السلام بعد أن عاد من معركة خلص فيها قومه، ومن بينهم لوط، من الأسر حيث يبارك ملكي صادق إبراهيم " فخرج ملك سدوم لاستقباله بعد رجوعه ... وملكي صادق ملك ساليم أخرج خبزا وخمرا. وكان كاهنًا لله العلي وباركه وقال مبارك

أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض ومبارك الله العلي الذي أسلم أعـــداءك في يدك "[٦].

ويتضح من هذا أن الاسم " أورشليم " الذي أصبحت المدينة تعرف بـــه مـن بين أسماء متعددة اسم عربي كنعاني،وليس اسمًا عبريًا كما يتبادر إلى الذهن. فقـــد تم تداول هذا الاسم منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد قبل أن يظهر العبريون، وقبـل أن تعرف اللغة العبرية في التاريخ، فالكلمة عربية كنعانية، ويشير الدكتـور أحمـد سوسة إلى ضرورة الاعتزاز بهذه التسمية فهي ليست تسمية يهوديـة كمـا يدعـي اليهود، وقد أورد شعرًا جاهليًا لأعشى قيس استخدم فيه التســمية " أورشـليم "[٧]. وفي هذا أيضًا يقول د. حسن ظاظا " اسم أورشليم ليس عبريًا أصيـلاً، وبدليـل أن اليهود وجدوا صعوبة في كتابة اسمها باللغة العبرية يروشالايم فهذه اليـاء الواقعـة قبل الميم الأخيرة لم تكن تثبت في الكتابة العبرية. وقد كتبت بدونها في أسفار العـهد القديم ٦٥٦ مرة وكتبت بها ست مرات فقط، ولذلك نص علماء التلمود على وجـوب كتابتها بلا ياء (التوسفتا، كتاب الصوم تعنيت ١٦/٦) [٨].

وهناك اتفاق بين العلماء على أن الجزء الأخير من التسمية وهــو ســاليم[٩]. وشاليم[١٠]. أو شلم في بعض النصوص هو اسم لإله كنعاني قديم ومعناه الســلام أو السلامة أي إله السلام، أو إله السلامة، وأن المدينة كانت مكرسة لعبادة إله الســلام قبل وصول العبريين إليها. وقد اختلف في تفسير معنى الجزء الأول من التســمية. فقد ترجمت أور بمعنى موضع أو مدينة فيصبح الاسم المركـب أورســالم بمعنــى مدينة السلام أو موضع عبادة إله السلام كما فسرت بمعنـــى " مـيراث " فيصبـح المعنى "ميراث السلام".

وقد نسب اليهود إلى إبراهيم تسميتها يرأه بمعنى " الخوف " بينما سماها نـوح عليه السلام شلم بمعنى السلام فنحتوا تسمية مركبة يـــرأه شـلم بمعنـــى الخـوف

والسلام. وهناك رأي آخر يرى أن " يرو " تعني " إله " واسم المدينة " إله السلام"[١١].

وقد سميت المدينة بعدة أسماء أخرى من بينها الاسم القديم " يبوس " نسبة إلى اليبوسيين وهم جماعة أو قبيلة من قبائل الكنعانيين. وقد ورد ذكر " اليبوسي " في التوراة على أنه من ولد كنعان الذي اعتبرته التوراة ابنا لحام بن سام، وهي نسبة خاطئة لم يقبلها الباحثون، وفي هذا يقول النص التوراتي : " وبنو حام كوش، ومصرايم وفوط وكنعان ... وكنعان ولد صيدون بكره وحثا واليبوسي والأموري والجرجاشي والحوي والعرقي والسيني والأروداي والصماري والحماتي. وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني. وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجئ نحو جرار إلى غزة وحينما تجئ نحو سدوم وعموره وأدمة وصبوييم إلى لاشع "[١٢].

واليبوسيون هم سكان أورشليم الأصليون. وقد تكرر ذكرهم على هذا الوضع في كتاب العهد القديم. وقد ظلوا يسكنون المدينة حتى عصر داود الذي تركهم يعيشون فيها بعد فتحه لها. ولم يتمكن الإسرائيليون من طردهم من المدينة. ففي يوشع ١٥ – ٦٣ يرد : " وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم. فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم ". وفي مكان آخر يرد : " وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم "[١٣].

وقد ورد ذكر " يبوس " كاسم لأورشليم في العهد القديم " فلم رد الرجل أن يبيت بل قام وذهب إلى مقابل " يبوس " هي أورشليم ... وفيما هم عند يبوس والنهار قد انحدر جدًا قال الغلام لسيده تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها. فقال له سيده لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل منها"[١٤]. ويشير هذا النص إشارة واضحة وصريحة إلى كون أورشليم مدينة

يبوسية كنعانية غريبة على الإسرائيليين وليس بها أحد منهم. وقد ورد اسم " يبـوس " في بعض المصادر المصرية القديمة حيث سماها الفراعنة " يابيثي، ويابتي " وهـو تحريف للاسم يبوس[١٥].

وكما أن التسمية " أورساليم " عربية كنعانية، وكذلك التسـمية يبـوس، فـإن الاسم " صهيون " الذي ورد في العهد القديم وشاع حديثًا في الحركة التـي أخـذت اسم الصهيونية نسبة إلى صهيون ... هذا الاسم هو أيضًا كنعاني أطلقه الكنعـانيون على قلعتهم الحصينة الواقعة على الرابية الجنوبية الشرقية من مدينتهم أوروسـاليم. فقد سميت هذه الرابية " حصن صهيون " بواسطة الكنعانيين. وقد غـير داود هـذه التسمية وأطلق على الحصن اسم " مدينة داود " ففي صموئيل الثاني نقـرأ :" كـان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك، وملك أربعين سنة ملك ثلاثا وثلاثيـن سـنة علـى جميع إسرائيل ويهوذا وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم رلـي اليبوسـيين سـكان الأرض. فكلموا داود قائلين لا تدخل إلى هنا ما لم تنزع العميـان والعـرج، أي لا يدخل داود إلى هنا. وأخذ داود حصن صهيون هي مدينـة داود. وأقـام داود فـي الحصن وسماه مدينة داود. وبنى داود مستديرًا من القلعة فدخلها[١٦]. ويرد الاسـمان "ساليم" و"صهيون" معًا في المزمور ٧٦ مما يشـير إلـى ارتباطـهما وقداسـتهما. ويلاحظ أن الاسم " ساليم " ورد بحرف السين وليس بحرف الشين المعـهود فـي الاستخدام العبري بما يشير إلى الأصل العربي الكنعاني : " الله معروف في يـهوذا اسمه عظيم في إسرائيل. كانت في ساليم مظلته ومسكنه في صـهيون "[١٧]. كمـا لاحظ أن الفعل " كان " مستخدم في صيغة الماضي وذلك يشير إلى أن الحديث عـن ماضي المدينة وليس عن تسميتها الحديثة فـي عصـر داود، ويلاحـظ أيضًـا أن الصيغة ساليم هي الصيغة الأقدم والتي تعود إلى عصر ملكي صادق ملـك سـاليم المعاصر لإبراهيم عليه السلام. ويبدو من العهد الجديد أن التسمية " ساليم " كـانت

لا تزال مستخدمة على عهد المسيح عليه السلام. ففي أنجيل يوحنا : " وكان يوحنا أيضًا يعمد في عين نون بقرب ساليم لأنه كان هناك مياه كثيرة[١٨].

وفي عصر داود عليه السلام سميت " أوروساليم " أو " يبوس " باسم " مدينة داود " ربما في محاولة لتغيير الاسم الكنعاني " أوروساليم " " ويبوس ". وقد وردت هذه التسمية الجديدة في مواضع عديدة في العهد القديم منها الموضع الذي يشير إلى تسمية حصن صهيون بمدينة داود : " وأخذ داود حصن صهيون. وهي مدينة داود.. وأقام داود في الحصن وسماه مدينة داود "[١٩]. وفي موضع آخر ترد ثلاثة أسماء في وقت واحد للمدينة : الاسمان القديمان " أوروساليم " و" يبوس " والاسم الجديد الذي أطلق عليه حصن صهيون : " وذهب داود وكل إسرائيل إلى أورشليم أي يبوس. وهناك اليبوسيون سكان الأرض، وقال يبوس لداود لا تدخل إلى هنا. فأخذ داود حصن يبوس (صهيون) وهي مدينة داود. وأقام داود في الحصن لذلك سموه مدينة داود وبنى المدينة حواليها من القلعة إلى ما حولها ويؤاب جدد سائر المدينة "[٢٠]. ويبدو من هذا الوصف أن داود بنى مدينته في حصن صهيون القلعة الكنعانية الواقعة على التل الجنوبي الشرقي من أورشليم، ثم توسعت مدينة داود لتشمل المناطق المحيطة بالقلعة. ومن الواضح أيضًا أن أورشليم كمدينة تحتوي مدينة داود هذه كما يوضح النص التالي : " حينئذ جمع سليمان شيوخ إسرائيل وكل رؤساء الأسباط ورؤساء الآباء لبني إسرائيل إلى أورشليم لإصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود وهي صهيون "[٢١]. ومع ذلك فقد طغى الاسم " أوروساليم " القديم على التسمية الجديدة " مدينة داود " والتي يفهم منها أنه على الرغم من أنها أطلقت على جزء من المدينة أوروساليم فقد أصبحت فيما بعد تشير إلى أوروساليم ذاتها فمدينة أوروساليم هي مدينة داود.

ثانيًا : وضع أورشليم من زمن الخروج من مصر وحتى قيـــام مملكـــة داود وسليمان عليهما السلام :

تدخل أورشليم في عصر مملكة داود وسليمان المتحدة وفي عصـــر المملكـــة المنقسمة في فترة من أشد فترات أورشليم اضطرابًا من الناحية السياســـية كمـــا أن صورتها الدينية تتسم بالازدواجية التي تتراوح بين كونها المدينة المقدسة والمدينـــة النجسة الزانية كما تصورها مؤرخو العهد القديم في فترة الانقسام.

فحتى نهاية عصر القضاة في القرن التاسع قبل الميلاد، وهو العصر الســـابق على عصر شاؤول ومملكة داود وسليمان ومن بعده مباشرة كانت مدينة أوروســـاليم مدينة عربية كنعانية خالصة تحمل الاسمين معًا أوروساليم ويبوس. ويؤكـــد ســـفر القضاة على حقيقتين أساسيتين : الأولى أنه لم يكن هناك في بني إسرائيل .. وفـــي تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل، كل واحد عمل ما حسن فـــي عينيـــه[٢٢]. أمـــا الحقيقة الثانية فهي أن أوروساليم أو يبوس كانت مدينة عربية كنعانية غريبة علـــى الإسرائيليين حيث يقول سفر القضاة :" وفي تلك الأيام حين لم يكن ملك في إسرائيل كان رجل لاوي متغربًا في عقاب جبل أفرايم .. فلم يرد الرجل أن يبيت بـــل قـــام وذهب وجاء إلى مقابل يبوس. هي أورشليم ... وفيما هم عند يبوس والنـــهار قـــد انحدر جدًا قال الغلام لسيده تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها. فقال لـــه سيده لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا. نعبر إلى جبعه. ونبيت في جبعه أو في الرامة "[٢٣].

وفي نهاية عصر القضاة يدخل الصراع بين الفلسطينيين والإســـرائيليين فـــي مرحلته الدامية التي ستؤدي فيما بعد إلى نهاية عصر القضاة، ودخول الإســـرائيليين في عصر الملكية الموحدة بعد توحيد قبائل بني إسرائيل والذي حكم خلالـــه ثلاثـــة ملوك فقط هم شاؤول وداود وسليمان لكي تنقسم المملكة بعد مـــوت ســـليمان إلـــى

مملكتين إحداهما إسرائيل في شمال فلسطين والثانية يهوذا في جنوب فلسطين. وتشير العديد من نصوص سفر القضاة إلى تسلط الفلسطينيين وسيادتهم على الإسرائيليين.

ويعود هذا الصراع الذي نشأ بين الكنعانيين وغيرهم من القبائل والجماعات العربية الساكنة في فلسطين والإسرائيليين القادمين مع يشوع من شبه جزيرة سيناء بعد الخروج من مصر إلا أن هذه الجماعات الإسرائيلية بدأت في التسلل إلى أرض كنعان والدخول إليها بوسائل عسكرية أحيانًا وبوسائل سلمية أحيانًا أخرى. وقد بدأت هذه الجماعة في الدخول إلى أرض كنعان بقيادة يشوع بعد موت موسى عليه السلام، والذي مات قبل أن يدخل أرض كنعان حسب رواية سفر التثنية : " وصعد موسى من عربا موآب إلى جبل نبو إلى رأس الفسجة الذي قبالة أريحا فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان ... وقال له الرب هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هنا لا تعبر. فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب ... ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم "[٢٤].

ويجب أن نذكر هنا أن سفر التثنية من الكتابات اليهودية المتأخرة الموضوعة خلال القرن السادس قبل الميلاد أي بعد موت موسى عليه السلام بسبعة قرون كاملة، وحول هذا العهد المعطى لموسى عليه السلام والمجدد للعهود السابقة المعطاة لإبراهيم وإسحاق ويعقوب يدور اللاهوت الإسرائيلي المتأخر الذي فهم العهد فهمًا ماديًا بحتًا في أنه يعني الأرض لا العهد الديني الأخلاقي الذي نصت عليه رسالات أنبياء بني إسرائيل والذي طالما نقضه بنو إسرائيل فاستحقوا العقاب المتكرر على ذلك. ويعتبر يشوع وفقًا لهذا الفهم اللاهوتي الإسرائيلي هو المنفذ الحقيقي للوعد المعطى لموسى عليه السلام، وكان بعد موت موسى عبدالرب أن

الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا : " موسى عبدي قد مـات. فالآن قم وأعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل. كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى. من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات وجميع أرض الحيثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم[٢٥].

وتكملة لهذه الرواية الدينية السياسية المتأخرة يبدأ الصراع مع سكان الأرض الأصليين " فقال يشوع لبني إسرائيل تقدموا إلى هنا ... وطردا يطرد من أمامكم الكنعانيين والحيثيين والحويين والفرزيين والجرجاشيين والأموريين واليبوسيين[٢٦]. وعبور يشوع بالإسرائيليين نهر الأردن يصور على أنه عبور ديني مؤيد بمعجزة إلاهية مثلما عبر الإسرائيليون مع موسى نهر سوف " على اليابسة عبر إسرائيل هذا الأردن لأن الرب إلهكم قد يبس مياه الأردن من أمامكم حتى عبرتم كما فعل الرب إلهكم ببحر سوف الذي يبسه من أمامنا حتى عبرنا. لكي تعلم جميع شعوب الأرض يد الرب أنها قوية لكي تخلفوا الرب إلهكم كل الأيام ... وعندما سمع جميع ملوك الآموريين الذين في عبر الأردن غربًا وجميع ملوك الكنعانيين الذين على البحر أن الرب قد يبس مياه الأردن ... ذابت قلوبهم ولم تبق فيهم روح بعد[٢٧]. وتندلع الحروب بين هذه القبائل والشعوب العربية من آموريين وموآبيين وكنعانيين.

أما عن وضع أوروساليم خلال هذا الصراع فقد كانت المدينة تحت حكم أدوني صادق. وقد بذل ملك أوروساليم الكنعاني جهوداً كبيرة لوقف تقدم الإسرائيليين بزعامة يشوع : فلما سمع أدوني صادق ملك أوروساليم أن يشوع قد أخذ عاي ... أرسل أدوني أدوني صادق ملك أورشليم إلى هوهام ملك حبرون وفرآم ملك يرموت ويافيع ملك لخيش ودبير ملك عجلون يقول أصعدوا إلى وأعينوني فنضرب جبون لأنها صالحت يشوع وبني إسرائيل فاجتمع ملوك

الأموريين الخمسة ملك أورشليم وملك حبرون وملك يرموت وملك لخيش وملك عجلون وصعدوا هم وكل جيوشهم ونزلوا على جبعون وحاربوها[٢٨]. وهكذا يرأس ملا أوروساليم هذا التحالف ضد يشوع وبني إسرائيل وحلفائهم. ولكنهم ينهزمون ولا يعلم مصير أورشليم سوى إن ملكها تم قتله مع بقية الملوك المتحالفين وحين قام يشوع بتقسيم الأراضي التي وقعت تحت سيادته للإسرائيليين تقع أوروساليم في قرعة سبط بني يهوذا : وقد بقيت أرض كثيرة جدًا للامتلاك ... إنما أقسمها بالقرعة لإسرائيل ملكًا كما أمرتك ... وكانت القرعة لسبط بني يهوذا حسب عشائرهم ... وصعد التخم في وادي ابن هنوم إلى جانب اليبوسي من الجنوب هي أورشليم[٢٩].

وعلى الرغم من هذه القسمة التي أوقعت أورشليم في نصيب بني يهوذا يشير سفر يشوع إشارة صريحة إلى أن أوروساليم لم تكن خالصة لليهوذيين من بني إسرائيل حيث لم يتمكن اليهوذيون من طرد السكان الأصليين : " وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم. فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم"[٣٠]. وكما حدث هذا في أورشليم كذلك حدث في جازر المدينة الكنعانية : فلم يطردوا الكنعانيين الساكنين في جازر[٣١]. ونفس الشئ يحدث مع بني منسي من الإسرائيليين : " ولم يقدر بنومنسي أن يملكوا هذه المدن فهزم الكنعانيون على السكن في تلك الأرض وكان لما تشدد بنو إسرائيل أنهم جعلوا الكنعانيين تحت الجزية ولم يطردوهم طردًا "[٣٢]. وهكذا كان الحال إلى أن مات يشوع وهو وضع يشير إلى تحقيق السيادة لبني إسرائيل على أوروساليم ولكن دون أن يتمكنوا من طرد سكانها الأصليين من اليبوسيين الكنعانيين فقبلوا منهم الجزية.

ويستمر الصراع حول أوروساليم في عصر القضاة بعد موت يشوع وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوا وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار. وبعد ذلك نزل بنو يهوذا لمحاربة الكنعانيين سكان الجبل والجنوب السهل "[٣٣]. ومع استمرار الصراع ورغم هذا التخريب الذي لحق بأوروساليم لم يتمكن الإسرائيليون من طرد اليبوسيين : " وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم. فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم "[٣٤]. وكان هذا هو وضع الكنعانيين في البلدان الأخرى جازر وقطرون وعكو وصيدون وغيرها وانتهى الأمر بسكن الإسرائيليين على اختلاف قبائلهم وسط الكنعانيين، وأفرايم لم يطرد الكنعانيين الساكنين في جازر فسكن الكنعانيون في وسطه في جازر .. ولم يطرد أشير سكان عكو ولا سكان صيدون ... فسكن الأشيريون في وسط الكنعانيين سكان الأراضي لأنهم لم يطردوهم ونفتالى لم يطرد سكان بين شمس ... بل سكن في وسط الكنعانيين سكان الأرض[٣٥].

ثالثًا : الاندماج الإسرائيلي في الكنعانيين ووقوعهم تحت التأثير الديني والحضاري للكنعانيين :

هكذا تشير نصوص العهد القديم إلى عدم قدرة القبائل الإسرائيلية على القضاء على الكنعانيين وقبولهم في النهاية الحياة وسط الكنعانيين الأمر الذي أدى في النهاية إلى اندماج الإسرائيليين في الكنعانيين وفي وقت مبكر إذ لم يتمكن البدو الإسرائيليون من مقاومة الحضارة الكنعانية ولا مِن مقاومة الوقوع تحت التأثير الديني الكنعاني : " وفعل بنو إسرائيل الشرفى عيني الرب وعبدوا البعليم. وتركوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر وساروا وراء آله أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب. تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروث. فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم وباعهم بيد أعدائهم حولهم ولم يقدروا بعد

على الوقوف أمام أعدائهم ... وأقام الرب قضاة فخلصوهم من يد ناهبيهم ... ولقضاتهم أيًا لم يسمعوا بل ذلوا وراء آلهة أخرى وسجدوا لها[٣٦]. ولم يتوقف الأمر عند حد الوقوع في عبادة الآلهة الكنعانية ولكن اندمجوا اجتماعيًا في الكنعانيين ووصل هذا الاندماج الاجتماعي إلى حد الزواج من الكنعانيات : " فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحوبيين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم. فعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب ونسوا الرب إلههم وعبدوا البعليم والسوارتي ... والعشتاروت وآلهة أرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبدوه. فحمى غضب الرب على إسرائيل وباعهم بيد الفلسطينيين وبيد بني عمون ... ثم عاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب فدفعهم الرب ليد الفلسطينيين أربعين عامًا[٣٧].

ويشترك في هذا الاختلاط بالكنعانيين والفلسطينيين أكابر بني إسرائيل. فهذا شمشون يختار لنفسه زوجة من بنات الفلسطينيين " ونزل شمشون إلى تمنة ورأى امرأة في تمنة من بنات الفلسطينيين فصعد وأخبر أباه وأمه .. فالآن خذاها لي امرأة ... وفي ذلك الوقت كان الفلسطينيون متسلطين على إسرائيل[٣٨]. ويروى سفر راعوث قصة زواج اثنين من ابناء يهوذا بامرأتين مؤابيتين أيام حكم القضاة[٣٩].

ومن بين الأمور التي يتأثر فيها الإسرائيليون بالكنعانيين والفلسطينيين وغيرهم التأثر بنظام الحكم عند هذه الشعوب، وقد وضح هذا التأثر في مطالبة نبيهم صموئيل بأن يجعل لهم ملكًا تقليدًا للشعوب المحيطة بهم. ومن المعروف أن النظام الذي كان سائدًا حتى ذلك الوقت هو نظام القضاة الذين كانوا يحكمون في بني إسرائيل فيقضون لهم ويديرون شئونهم المختلفة ويتولون قيادة حروبهم : "وكان

لما شاخ صموئيل أنه جعل بنيه قضاة لإسرائيل ... فاجتمع كل شـــيوخ إســرائيل وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة. وقالوا له هو ذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا فـي طريقك. فالآن اجعل لنا ملكًا يقضي لنا كسائر الشعوب. فساء الأمـــر فـــي عينـــي صموئيل إذ قالوا أعطنا ملكًا يقض لنا وصلى صموئيل إلى الـــرب. فقــال الــرب لصموئيل اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك. لأنهم لن يرفضوك أنت بـــل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم ... ولكن أشهدن عليهم وأخبرهم بقضـــاء الملــك الذي يملك عليهم "[٤٠]. ومن الواضح أن النظرة السياسية السابقة على قيام الملكيـــة في إسرائيل نظرة رافضة لنظام الملكية. فقد سبق أن رفض القـــاضي جدعـــون أن يعين نفسه ملكًا أو أن يعين عليهم أحدًا من أبنائه ملكًا : " وقـــال رجـــال إســرائيل لجدعون تسلط علينا أنت وابنك وابن ابنك لأنك قد خلصتنا من يد مديان فقال لـــهم جدعون لا أتسلط أنا عليكم ولا يتسلط ابني عليكم. الرب يتسلط عليك "[٤١].

ويشير رد صموئيل أيضًا إلى رفض فكرة الملكية والحكم الملكـــي الوراثـــي ويستند هذا الرفض إلى الصفة الدينية الثيوقراطية التي كان عليـــها اتحـــاد القبـــائل الإسرائيلية في عصر القضاة والذي ينتهي بصموئيل الذي يعتبر آخر القضـــاة فـــي تاريخ بني إسرائيل. فقد كان أساس هذا الاتحاد دينيًا وليس سياسيًا لأن القبائل التـــي أعلنت الولاء ليهوه كونت اتحادًا دينيًا حول الإله المحارب وحول اعتقاد عام مرتبـط بشريعة مقدسة. وبتأثير من الحضارة الكنعانية بدأت عملية توطيـــن عبـــادة يـــهوه وتعديلها في اتجاه يؤكد تأثير الدين الكنعاني الزراعي. فبعد المكاسب التي حققتـــها القبائل الإسرائيلية على حساب الكنعانيين والتي نتج عنها أن أتباع يـــهوه أصبحـــوا أصحاب أرض انتزعوها من أصحابها الكنعانيين والفلسطينيين وغيرهم، أصبحـــت الحاجة ماسة إلى تغيير النظام السياسي بهدف الدفاع عـــن المكاســب الاقتصاديـــة فبدأت في الظهور فكرة الملكية تقليدًا للكنعانيين واستجابة لحاجة اقتصادية. ويرفض

جدعون وصموئيل هذا الاتجاه الحديد لما فيه من رفض مباشر لحكم يـهوه وملكـه والاتجاه إلى نظام الملك السائد بين الشعوب الأخرى في الشرق الأدنى. وقـد أدت الظروف والضغوط المواتية إلى حدوث هذا التحول في تاريخ الإسـرائيليين مـن اتحاد القبائل المرتبط بعبادة يهوه إلى النظام الملكـي المدنـي الـذي يسـعى إلـى المحافظة على المكاسب الإقليمية والاقتصادية التي تحققت. ومن أهم هذه الضغـوط استقرار الفلسطينيين على الساحل الفلسطيني وتقدمهم إلى المناطق الداخلية وإيقاعـهم الهزيمة بالإسرائيليين مهددين الاتجاه القبلي :" غدا في مثل الآن أرسل إليك رجـلا من أرض بنيامين فامسحه رئيسًا لشـعبي إسـرائيل فيخلـص شـعبي مـن يـد الفلسطينيين"[٤٢]. وقد استولى الفلسطينيون أيضًا على التابوت ودمروا معيد شـبلوه. وأصبحت الحاجة ملحة إلى تعيين ملك يحكم باسم يهوه ويقود إسرائيل في حروبـها : فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا لا بل يكون علينا ملـك. فنكـون نحن أيضًا مثل سائر الشعوب ويقضي لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنـا[٤٣]. فيستجيب صموئيل مضطرًا وغير مقتنع، ومحاولاً في نفس الوقت عـدم السـماح للملك المعين شاؤول بالجمع بين الأمور الدنيوية والدينية حيـث احتفـظ صموئيـل بإدارة شئون الدين. وفي إحدى فقرات صموئيل الأول إشارة إلى ندم إلـهي علـى تعيين شاؤول ملكًا، ويظهر منه ندم إلهي على نظام الملكية ذاته : " والرب ندم لأنـه ملك شاؤول على إسرائيل "[٤٤]. وفي موقع آخر :" وكان كلام الرب إلى صموئيـل قائلا : ندمت على أني قد جعلت شاؤول ملكًا لأنه رجـع مـن ورائـي ولـم يقـم كلامي"[٤٥]. وكذلك :" لأنك رفضت كلام الرب رفضك مـن الملـك " ... " لأنـك رفضت كلام الرب فرفضك الرب من أن تكون ملكًا على إسرائيل "[٤٦].

وهكذا تعددت التأثيرات الكنعانية على حياة الإسرائيليين الذيـن قدمـوا إلـى أرض كنعان من مصر بعد خروج موسى عليه السلام فقد وقعوا تحت التأثير الديني

والسياسي والحضاري للبيئة الكنعانية، واندمجوا فيها اندماجًا تامًا، وأخذوا عنها نظامها السياسي، وتحولوا من نظام الحكم القبلي الذي اعتمد على القضاة في إدارة شئون السلم والحرب إلى نظام الدولة بداية بشاؤول ثم داود وسليمان عليهما السلام.

رابعًا : مملكة داود ونشأة اللاهوت الأورشليمي :

بعد أن اتخذ داود من أوروساليم عاصمة له بدأ في الظهور فكر لاهوتي يربط المدينة بداود ويؤكد على الاختيار الإلهي لداود وأوروساليم أصبحت تشير إلى أورشليم ذاتها. فمدينة أورشليم هي مدينة داود. فقد ورد في العهد القديم على لسان سليمان : " مبارك الرب إله إسرائيل الذي كلم بفمه داود أبي وأكمل بيديه قائلاً منذ يوم أخرجت شعبي من أرض مصر لم آخذ مدينة من جميع أسباط إسرائيل لبناء بيت ليكون اسمي هناك ولا اخترت رجلاً يكون رئيسًا لشعبي إسرائيل. بل اخترت أورشليم ليكون اسمي فيها واخترت داود ليكون على شعبي إسرائيل"(٤٧).

ويشير هذا النص إلى بداية الفكر اللاهوتي الذي ظهر حول أورشليم ليحولها بعد استيلاء داود عليها وبناء سليمان للهيكل فيها إلى المدينة المقدسة للإسرائيليين، المدينة التي يسكنها الرب في البيت الذي بنى له وباسمه،و الذي كان في نفس الوقت هو بيت الملك حتى يصطبغ الحكم بالصبغة الدينية، ويصبح الملك يحكم باسم الرب ومن بيته، وحتى يجتمع في شخص الملك صفة الملك والكاهن : " وبعد نهاية عشرين سنة بعدما بنى سليمان البيتين بيت الرب وبيت الملك "(٤٨). ويؤكد هذا اللاهوت على الاختيار الإلهي لأورشليم وعلى مركزية العبادة فيها. فهي ليست مجرد عاصمة سياسية لداود وسليمان ولكن شاء التفكير اللاهوتي المتأخر أن يحولها أيضًا إلى المركز الديني الوحيد لبني إسرائيل : " ولأجل أورشليم التي اخترتها "، وأيضًا : " لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل هأنذا أمزق المملكة من يد

سليمان وأعطيك عشرة أسباط ويكون له سبط إسرائيل ... أورشليم المدينة التي اخترتها لنفسي لأضع اسمي فيها "[٤٩]. ويلاحظ أن هذا اللاهوت الأورشليمي يتطور في ظل ظروف غريبة وغير مواتية، ولا يتناسب مع طبيعة الأحداث ولكنه التناقض الإسرائيلي الذي جعل الفكر اليهودي المتأخر الذي صاغ أسفار العهد القديم يبني لاهوت أورشليم في ظل ما أسماه بعصيان داود وسليمان ونكثهما بالعهد والفرائض. وأول علامات التناقض في هذا اللاهوت الناشئ حول المدينة وحول داود أن الرب الذي اختار أورشليم مدينة له واختار داود على شعبه إسرائيل يمنع داود المختار من بناء بيت الرب : " ودعا داود سليمان ابنه وأوصاه أن يبني بيتًا للرب إله إسرائيل. وقال داود لسليمان يا ابني قد كان في قلبي أن أبني بيتًا لاسم الرب إلهي. فكان إلى كلام الرب قائلاً قد سفكت دمًا كثيرًا وعملت حروبًا عظيمة فلا تبني بيتًا لاسمي لأنك سفكت دماءً كثيرة على الأرض أمامي. هو ذا يولد لك ابن يكون صاحب راحة وأريحة من جميع أعدائه حواليه لأن اسمه يكون سليمان فأجعل سلامًا وسكينة في إسرائيل في أيامه هو يبني بيتًا لاسمي وهو يكون لي ابنًا وأنا له أبًا وأثبت كرسي ملكه على إسرائيل إلى الأبد الآن يا ابني ليكن الرب معك فتفلح وتبني بيت الرب إليهم كما تكلم عنك "[٥٠].

وهكذا في الوقت الذي يختار فيه الرب داود يمنعه من بناء بيته لكثرة سفكه للدماء ولحروبه الكثيرة حسب الفهم اليهودي والوجه الآخر للتناقض أن أورشليم التي ادعى كتاب العهد القديم اختيارها مدينة للرب مع اختيار داود نفس هذه المدينة المختارة يعلن الرب عن رغبته في تدميرها بسبب ذنوب داود وآثامه على حد تعبير كتاب العهد القديم، فيرسل الرب عليها ملاكًا ليهلكها : " فجعل الرب وباء في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد فمات من الشعب من دان إلى بئر سبع سبعون ألف رجل ".

وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها فندم الرب عن الشر وقال للملاك المهلك الشعب كفى. الآن رد يدك ... فكلم داود الرب عندما رأى الملاك الضارب الشعب وقال ها أنا أخطأت وأنا أذنبت وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا فلتكن يدك عليّ وعلى بيت أبي ... واستجاب الرب من أجل الأرض فكفت الضربة عن إسرائيل[٥١].

وليس هناك من تفسير لهذا التناقض في اختيار داود أورشليم ورغبة الرب في تدمير أورشليم ورفضه أن يبني داود بيتًا سوى أن كتاب العهد القديم أرادوا أن يضعوا نهاية لاختيار داود ليفسحوا المجال أمام اختيار إلهي جديد لسليمان ليحل محل داود. وليس هناك من وسيلة للإبقاء على الاختيار الإلهي لداود مع الاختيار الإلهي الجديد لسليمان. وقد آثر كتاب العهد القديم الوقوع في التناقض مع ما فيه من تشويه للعقيدة وللذات الإلهية التي نراها مترددة في اختيارها، ونادمة على أفعالها. أما الاختيار الإلهي الجديد لسليمان فينص عليه العهد القديم وعلى لسان داود والمعترف بإثمه والقابل لاختيار ابنه من عذاب الرب : " كان في قلبي أن ابني بيت قرار لتابوت عهد الرب ولموطئ قدمي إلهنا. وقد هيأت للبناء. ولكن الله قال لي لا تبني بيتًا لاسمي لأنك أنت رجل حروب وقد سفكت دمًا. وقد اختارني الرب إله إسرائيل من كل بيت أبي لأكون ملكًا على إسرائيل إلى الأبد لأنه إنما اختار يهوذا رئيسًا، ومن كل بني لأن الرب أعطاني بنين كثيرين إنما اختار سليمان ابني ليجلس على كرسي مملكة الرب على إسرائيل. وقال لي أن سليمان ابنك هو يبني بيتي ودياري لأني اخترته لي ابنًا وأنا أكون له أبًا. وأثبت مملكته إلى الأبد"[٥٢]. وسرعان ما يسقط هذا الاختيار الإلهي الجديد فمثلما وقع داود في الإثم هكذا وقع سليمان وهكذا أيضًا يعلن الرب من جديد عن غضبه على مختاره سليمان مما يضيف تشويهًا جديدًا إلى الذات الإلهية وقع فيه كتاب العهد القديم في

محاولاتهم المتكررة لتبرير تولية ملوكهم،و إبدال بعضهم ببعض عن طريق اختيار جديد يلغي اختياراً قديمًا، وينتهي بنسبة الآثام والخطايا إلى المختارين، ونسبة التردد والندم إلى الرب وما ينطوي عليه ذلك من نقص في المعرفة وعدم معرفة بالسلوك المستقبلي لكل من داود وسليمان من قبل الرب.

يقول العهد القديم في أمر وقوع سليمان في الخطيئة الكبرى وهي اتباع آلهة أخرى وعلينا أن نتذكر أنها خطيئة موجهة إلى نبي : " وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهن الرب لبني إسرائيل لا تدخلوا إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق بهؤلاء بالمحبة. وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاثة مئة من السراري فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين وملكوم ورجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تمامًا كداود أبيه. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولملوك رجس بنى عمون. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن. فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى. فلم يحفظ ما أوصى به الرب "(٥٣).

هذه صورة سليمان مختار الرب في عيون كتاب العهد القديم والذي سرعان ما تخلوا عنه فأسقطوا اختياره بعد اتهامه بالشرك، وحكموا على مملكته بالانقسام من بعده : " فقال الرب لسليمان من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقًا وأعطيها لعبدك. إلا أني أفعل ذلك

في أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها. على أني لا أمزق منك المملكة كلها بل أعطي سبطًا واحدًا لابنك داود عبدي ولأجل أورشليم التي اخترتها "(٥٤).

خامسًا : وضع أورشليم بعد انقسام مملكة داود وسليمان عليهما السلام :

انقسمت مملكة سليمان عليه السلام بعد موته إلى مملكتين إحداهما إسرائيل في شمال فلسطين وعاصمتها شكيم في السامرة، والثانية مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم، والسبب الديني الذي يعطيه العهد القديم لانقسام المملكة هو ترك عبادة الإله الواحد يهوه وعبادة آلهة متعددة : " وكان في ذلك الزمان لما خرج يربعام من أورشليم أنه لاقاه أخيا الشيلوني النبي في الطريق وهو لابس رداءًا جديدًا وهما وحدهما في الحقل. فقبض أخيا على الرداء الجديد الذي عليه ومزقه اثنتى عشرة قطعة وقال ليربعام خذ لنفسك عشر قطع لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل ها أنذا أمزق المملكة من يد سليمان وأعطيك المدينة التي اخترتها من كل أسباط إسرائيل. لأنهم تركوني وسجدوا لعشتروت إلهة الصيدونيين ولكموش إله الموآبين ولملكوم إله بني عمون ولم يسلكوا في طرقي ليعملوا المستقيم في عيني وفرائضي وأحكامي كداود أبيه "(٥٥).

وبسبب انقسام المملكة تصبح أورشليم عاصمة للمملكة الجنوبية فقط وهي لا يتبعها سوى سبط يهوذا وحده الذي تبع بيت داود بينما ضمت المملكة الشمالية عشرة أسباط : " لم يتبع بيت داود إلا سبط يهوذا وحده " وهو عقاب لبيت داود بسبب معصية سليمان، " وأذل نسلي داود من أجل هذا "(٥٦). ورغم النص على أن سبطًا واحدًا يتبع بيت داود فالعهد القديم يشير أيضًا إلى تبعية سبط بنيامين لبيت يهوذا بعد الانقسام : " ولما جاء رحبعام إلى أورشليم جمع كل بيت يهوذا وسبط بنيامين ... ليحاربوا بيت إسرائيل ويردوا المملكة لرحبعام بن سليمان ".

وهنا يظهر مركز جديد ينافس أورشليم على الزعامة في بني إسرائيل حيث قام يربعام ملك إسرائيل الشمالية ببناء شكيم واتخذها عاصمة دولته. وقد خشي يربعام من أن يتسبب مركز أورشليم الديني لكل الإسرائيليين في عودة الملك إلى بيت داود فقام بإجراء بعض التغييرات التي تنهى مكان أورشليم الدينية بالنسبة للشماليين : " وبنى يربعام شكيم في جبل أفرايم وسكن بها. ثم خرج من هناك وبنى فنوئيل. وقال يربعام في قلبه الآن ترجع المملكة إلى بيت داود إن صعد هذا الشعب ليقربوا ذبائح في بيت الرب في أورشليم يرجع قلب هذا الشعب إلى سيدهم إلى رحبعام ملك يهوذا ويقتلوني ويرجعون إلى رحبعام ملك يهوذا فاستشار الملك وعمل عجلي ذهب وقال لهم كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم. هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذي أصعدوك من أرض مصر ووضع واحدًا في بيت إيل وجعل الآخر في دان. وكان هذا الأمر خطية وكان الشعب يذهبون إلى أمام أحدهما حتى إلى دان. وبنى بيت المرتفعات وصير كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بني لاوي. وعمل يربعام عيدًا في الشهر الثامن من اليوم الخامس عشر من الشهر كالعيد الذي في يهوذا وأصعد على المذبح. فعمل عيدًا لبني إسرائيل[٥٧].

وقد اتضح من النص السابق أن يربعام اهتم ببناء عاصمة جديدة هي شكيم ثم أراد أن يحول الإسرائيليين عن أورشليم كمركز ديني به بيت الرب هيكل سليمان فأقام بيتين للعبادة الأول في بيت إيل والثاني في دان. ووضع عجلاً ذهبيًا في كل بيت منهما وطلب من الإسرائيليين أن يقدموا ذبائحهم في بيت إيل وفي دان. أما التغيير الديني الجريء الآخر هو تعيين كهنة من غير سبط لاوي المختص بالكهنوت في بني إسرائيل، وإقامة عيد جديد يحل محل العيد القديم الذي يقام في أورشليم. وقد قصد من هذه التغيرات الدينية خلق مركز ديني جديد في الشمال يحل محل أورشليم بالنسبة للشماليين حتى لا يضطروا إلى الذهاب إلى أورشليم الأمر

الذي يهدد مملكته سياسيًا. وتتعرض أورشليم في السنة الخامسة من ملك رحبعام بن سليمان عليها إلى غزوة مصرية : " وفي السنة الخامسة من ملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شئ وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان "[٥٨]. وجدير بالذكر أن أم رحبعام بن سليمان عربية عمونية " وأما رحبعام بن سليمان فملك في يهوذا. وكان رحبعام ابن إحدى وأربعين سنة حين ملك وملك سبع عشرة سنة في أورشليم المدينة التي اختارها الرب لوضع اسمه فيها من جميع أسباط إسرائيل. واسم أمه نعمة العمونية ... وكانت حرب بين رحبعام ويربعام كل الأيام. ثم اضطجع رحبعام مع أبنائه ودفن مع أبائه في مدينة داود "[٥٩].

يبدو أن ترصة التي بناها يربعام لم تتمكن من منافسة أورشليم دينيًا لذلك قام عمري ملك إسرائيل ببناء مدينة جديدة لمنافسة أورشليم سياسيًا ودينيًا لأنها ستصبح فيما بعد المركز الديني المنافس لأورشليم على مدى تاريخ المملكة الشمالية وحتى سقوطها على يد الآشوريين عام ٧٢١ ق.م : " في السنة الواحدة والثلاثين لآسا ملك يهوذا ملك عمري على إسرائيل اثنتى عشرة سنة. ملك في ترصة ست سنين واشترى جبل السامرة من شامر بوزنتين من الفضة وبنى على الجبل ودعا اسم المدينة التي بناها باسم شامر صاحب الجبل السامرة ". وهكذا تغيرت عاصمة الشمال من شكيم إلى ترصة إلى السامرة. وقد ملك بعد عمري ابنه أحاب الذي تأثر بعبادة زوجته إيزابل ابنة ملك الصيدونيين فعبد البعل وسجد له وأقام مذبحًا للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة[٦٠].

وتتعرض أورشليم للغزو عدة مرات فقد صعد إليها حزائيل ملك أرام، واضطهر يهواش ملك يهوذا إلى أخذ جميع الأواني والأدوات المقدسة، وكل الذهب الموجود في خزائن بيت الرب وبيت الملك وأرسلها إلى حزائيل ملك أرام فصعد

عن أورشليم، وفي عهد أمصيا ملك يهوذا تتعرض أورشليم للغزو مرة أخرى على يد يهواش ملك إسرائيل الذي جاء إلى أورشليم، وهدم سور أورشليم من باب أفرايم إلى باب الزاوية ... وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك والرهناء ورجع إلى السامرة[٦١].

وفي عصور الملوك المتأخرين من ملوك إسرائيل الشمالية يبدأ الغزو الآشوري على يد تجلات بلاسر ملك آشور ويتم سبي الإسرائيليين إلى آشور :" في أيام فقع ملك إسرائيل جاء تغلث فلاسر ملك أشور وأخذ عيون وابل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالي وسباهم إلى أشور ... وصعد ملك أشور (شلمنصر) على كل الأرض وصعد إلى السامة وحاصرها ثلاث سنين. في السنة التاسعة لهوش (ملك إسرائيل) أخذ ملك أشور السامرة وسبى إسرائيل إلى أشور وأسكنهم في حلم وخابور ونهر جوزان وفي مدن مادى ووفقًا للنظام الآشوري فقد تم تفريق السامرة من سكانها وأتى ملك أشور بقوم من بابل وكوث وعوا حماه وسفروايم وأسكنهم في مدن السامرة عوضًا عن بيت إسرائيل فامتلكوا السامرة وسكنوا في مدنها[٦٢].

أما أورشليم فتنجو موقتًا من مصير السامرة إذ يضطر ملك أشور سنحاريب إلى الانسحاب قافلاً إلى بلاده بسبب ظهور قوى داخلية في بلاد النهرين مهددة لملك أشور ومن أهمها القوة البابلية الجديدة[٦٣].

وقد تفنن اللاهوت الأورشليمي في إعطاء العلل الدينية والتبريرات اللاهوتية لنجاة أورشليم من مصير السامرة. ويبدأ هذا اللاهوت بعرض التهديدات الآشورية لأورشليم في صورة التحدي الذي يعرضه ملك أشور إن كان إله أورشليم يستطيع أن يقوم بما لم تقم به الآلهة الأخرى فيحمي أورشليم من أشور :" هل أنقذ آلهة الأمم كل واحد أرضه من يد ملك أشور. أين آلهة حماة وأرفاد اين آلهة سفروايم

وهينع وعوا. وهل أنقذوا السامرة من يدي. من من كل آلهة الأرض أنقذ أرضهم من يدي حتى ينقذ الرب أورشليم من يدي "[٦٤]. ويرسل حزقيا ملك يهوذا إلى النبي إشعيا يبحث عنده عن إجابة أو مخرج من هذا التحدي والتهديد الآشوري، ويأتي رد إشعيا : " لا تخف بسبب الكلام الذي سمعته الذي جدف علي به غلمان ملك أشور " ويمضي هذا التفسير الديني لعودة سنحاريب إلى بلاده أشور وعدم غزوه لأورشليم:" ها أنذا أجعل فيه روحًا فيسمع خبرًا ويرجع إلى أرضه وأسقطه بالسيف في أرضه "[٦٥].

ويتمادى المفسر الإسرائيلي المتأخر في تصوير موقف أورشليم من سنحاريب فيصورها رغم ضعفها الشديد في صورة المدينة المحتقرة المستهزئة بسنحاريب :" احتقرتك واستهزأت بك العذراء ابنة صهيون. ونحوك انغضت ابنة أورشليم رأسها. من عيرت وجدفت وعلى من عليت صوتًا وقد رفعت إلى العلاء عينيك على قدوس إسرائيل "[٦٦]. وينتهي هذا التفكير اللاهوتي بطرح فكرة بقية إسرائيل بمعنى أن أورشليم تنجو من الدمار لأن منها تخرج البقية التي تنجو من الغزو والتدمير*وتكون بذرة جديدة لإسرائيل :" لأنه من أورشليم تخرج البقية والناجون من جبل صهيون لذلك هكذا قال الرب عن ملك أشور. لا يدخل هذه المدينة ولا يرمي هناك سهمًا ولا يتقدم عليه بترس ولا يقيم عليها مترسة. وفي الطريق الذي جاء فيه يرجع وإلى هذه المدينة لا يدخل يقول الرب وأحامي عن هذه المدينة لأخلصها من أجل نفسي ومن أجل داود عبدي "[٦٧].

أما قرار انسحاب سنحاريب وعودته إلى بلاده أشور فيصوره العهد القديم على أنه تم على أثر هزيمة مريرة وقعت بجيش أشور على يد ملاك الرب :" وكان في تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش أشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألفًا. ولما بكروا صباحًا إذا هم جميعًا جثث ميتة. فانصرف سنحاريب ملك

أشور وذهب راجعًا وأقام في نينوي "[٦٨]. بل إنه يقتل في بيت آلهته كما تنبأ إشعيا. هكذا يصور اللاهوت الأورشليمي نجاة أورشليم وسقوط جيش سنحاريب بواسطة ملاك الرب وعودة سنحاريب إلى نينوي بلده. ويتجاهل هذا اللاهوت العوامل السياسية والعسكرية والظروف المتغيرة التي دفعت سنحاريب وجيشه إلى اتخاذ قرار الانسحاب والعودة.

ومع ذلك سرعان ما ينسى واضع هذا اللاهوت حول أورشليم المدينة وقداستها وانتصارها الإعجازي على جيش الإمبراطورية الآشورية ليتنبأ على المدينة بالدمار والخراب على يد بابل. ففي الإصحاح التالي مباشرة وفي عصر نفس الملك حزقيا الذي حدثت المعجزة الإلهية في عصره. وعلى يد نفس النبي إشعيا الذي أعلن المعجزة نقرأ :" هو ذا تأتي أيام يحمل فيها كل ما في بيتك وما ذخره أباؤك إلى هذا اليوم إلى بابل، لا يترك شئ يقول الرب. ويؤخذ من بنيك الذين تلدهم فيكونون خصيانًا في قصر ملك بابل وفي عصر منسي ابن خزقيا ... ها أنذا جالب شر على أورشليم ويهوذا ... وأمد على أورشليم خيط السامرة ... وأمسح أورشليم كما يمسح واحد الحصن يمسحه ويقبله على وجهه وأرفض بقية ميراثي وأدفعهم إلى أيدي أعدائهم فيكونون غنيمة ونهبًا لجميع أعدائهم. لأنهم عملوا الشر في عيني وصاروا يغيظونني من اليوم الذي فيه خرج آباؤهم من مصر إلى اليوم "[٦٩].

وتنتاب أورشليم العديد من الاضطرابات خلال عصور ملوك يهوذا الضعاف قبل الغزو البابلي. ففي عصر منسي تسفك الدماء في المدينة :" وسفك أيضًا منسى دما بريًا كثيرًا جدًا حتى ملأ أورشليم من الجانب إلى الجانب فضلاً عن خطيئته التي بها جعل يهوذا يخطئ بعمل الشر في عيني الرب " وفي عهد يهوآحاز بن يوشيا يستمر فعل الشر رغم الإصلاحات الدينية التي قام بها أبوه يوشيا الذي قتل

على يد المصريين في أيام فرعون مصر نخو حين خرج يوشيا للقائه عند مجدو حين صعوده على ملك أشور. وقد أسر الفرعون نخو يهوآحاز بني يوشيا ومنعه من أن يملك أورشليم. " وأسره فرعون نخو في بلة في أرض حماة لئلا يملك في أورشليم وغرم الأرض بمئة وزنه من الفضة ووزنه من الذهب وملك فرعون نخو الياقيم بن يوشيا عوضًا عن يوشيا أبيه وغير اسمه إلى يهوياقيم وأخذ يوآحاز وجاء إلى مصر فمات هناك ودفع يهوياقيم الفضة والذهب لفرعون "(٧٠).

وأخيرًا يقوم نبوخذ نصر ملك بابل بغزو يهوذا ويحاصر أورشليم. ويصور مؤرخ العهد القديم هذا الغزو في صورة عقاب إلهي ليهوذا وملوكها على خطاياهم المتكررة : " صعد نبوخذ ناصر ملك بابل فكان له يهوياقيم عبدًا ثلاث سنين ثم عاد فتمرد عليه فأرسل الرب عليه غزاة الكلدانيين وغزاة الأراميين وغزاة الموآبيين وغزاة بني عمون وأرسلهم على يهوذا ليبيدها حسب كلام الرب الذي تكلم به عن يد عبيده الأنبياء. وفي عهد يهوياكين ابن يهوياقيم تقع أورشليم تحت الحصار البابلي:" في ذلك الزمان صعد عبيد نبوخذ ناصر ملك بابل إلى أورشليم فدخلت المدينة تحت الحصار وجاء نبوخذ ناصر ملك بابل إلى أعلى المدينة وكان عبيده يحاصرونها " ووفقًا للسياسة البابلية يتم سبي أهل مدينة أورشليم إلى بابل ويستولى ملك بابل على خزائن الهيكل وبيت الملك :" وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف مسبي وجميع الصناع الأقيان. لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض. وسبي يهوياكين إلى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض سباهم من أورشليم إلى بابل وجميع أصحاب البأس سبعة آلاف والصناع والأقيان ألف وجميع الأبطال أهل الحرب سباهم ملك بابل إلى بابل:"(٧١).

وتقع أورشليم من جديد تحت الحصار البابلي في عهد صدقيا حيث " جاء نبوخذ ناصر ملك بابل هو وكل جيشه على أورشليم ونزل عليها وبنوا عليها أبراجًا حولها. ودخلت المدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشرة للملك صدقيا " وتتعرض المدينة لمجاعة ولم يكن خبز لشعب الأرض ففرغت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلاً ويهرب ملكها فتلحقه جيوش البابليين وتأسره إلى بابل.

ويقوم البابليون بإحراق أورشليم وتشريد أهلها وسبيهم وتخريب الهيكل وحمل آنيته وأدواته إلى بابل :" وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار وجميع أسوار أورشليم مستديرًا هدمها كل جيوش الكلدانيين مع رئيس الشرطة وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم بنوزرادان رئيس الشرطة ... وأعمدة النحاس التي في بيت الرب كسرها الكلدانيون وحملوا نحاسها إلى بابل "[٧٢].

هكذا تم تدمير أورشليم بعد إحراقها وتدمير هيكلها ونقل آنيته وأدواته المقدسة إلى بابل. وتم سبي أهل أورشليم وسادتها إلى بابل بينما هرب بقية السكان إلى مصر :" فقام جميع الشعب من الصغير إلى الكبير ورؤساء الجيوش الإسرائيليين إلى مصر لأنهم خافوا من الكلدانيين ".

ويعلل المؤرخ الإسرائيلي المتأخر هذه الأحداث التي وقعت لأورشليم ولبيت الرب التعليل المعتاد وهو العقاب الإلهي للمدينة وأهلها وملوكها بسبب هجرهم عبادة يهوه ووقوعهم في العبادة الأجنبية :" فقال الرب إني أنزع يهوذا أيضًا من أمامي كما نزعت إسرائيل وأرفض هذه المدينة التي اخترتها أورشليم والبيت الذي قلت يكون اسمي فيه "[٧٣]. وكما بدأ اللاهوت الأورشليمي بتقديس المدينة واختيارها مدينة لله واختيار داود انتهى برفض المدينة ورفض اختيارها ورفض بيت الرب الذي أقيم فيها.

ملاحظات ختامية على صورة أورشليم في العهد القديم :

قدمنا في الصفحات السابقة عرضًا تاريخيًا موضوعيًا لرواية العهد القديم الخاصة بأورشليم ملتزمين فيه بنصوص العهد القديم إلى حد كبير تاركين هذه النصوص لترسم خطوط تاريخ أورشليم كما عرفه وفهمه وفسره مؤرخو العهد القديم، والآن نحاول أن نخرج من هذا الوصف التاريخي بعدد من النتائج التي أوصلتنا إليها هذه القراءة المتأنية من نصوص العهد القديم.

أولاً : الأصل غير الإسرائيلي لمدينة أورشليم :

تذكرنا نصوص العهد القديم دائمًا وأبدًا بأن مدينة أورشليم مدينة غريبة على الإسرائيليين ولا يوجد بها في تاريخها القديم السابق على قدوم الإسرائيليين إسرائيلي واحد :" وفيما هم عند بيوت **أورشليم** والنهار قد انحدر جدًا قال الغلام لسيده تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها فقال له سيده لا نميل إلى **مدينة غريبة** حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا "(٧٤). وفي سفر حزقيال يتم التأكيد مرة أخرى على الأصل غير الإسرائيلي لأورشليم :" وكانت كلمة الرب إلى قائلة " يا بن آدم عرف أورشليم برجاساتها. وقل هكذا قال السيد الرب لأورشليم. مخرجك ومولدك من أرض كنعان أبوك أموري وأمك حيثية(٧٥). ومعنى هذه الاقتباسات إدراك كتاب العهد القديم ومؤرخيه لحقيقة أصل أورشليم ونشأتها التاريخية غير الإسرائيلية قبل تحولها على يد داود إلى المركز السياسي والديني لبني إسرائيل.

ثانيًا : الطبيعة المركبة لمدينة أورشليم خلال الفترة الإسرائيلية :

وإلى جانب الاعتراف بالأصل غير الإسرائيلي للمدينة اعترف العهد القديم أيضًا أن المدينة لم تكن أبدًا خالصة لبني إسرائيل خلال الفترة الإسرائيلية من

حياتها، والتي تبدأ من عصر داود فقد فشلت كل محاولات الاستيطان الإسرائيلية قبل عصر داود في أورشليم زمن يشوع تلميذ موسى عليه السلام :" وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم "(٧٦). ويستمر هذا الوضع السكاني المركب للمدينة في عهد القضاة حيث قام اليهوذيون بمحاربة الكنعانيين في أورشليم وأحرقوا المدينة ورغم ذلك لم يتمكن اليهوذيون من السيطرة على المدينة واستخلاصها لأنفسهم من الكنعانيين :" وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وخربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار. وبعد ذلك نزل بنو يهوذا لمحاربة الكنعانيين سكان الجبل والجنوب والسهل وثار يهوذا على الكنعانيين الساكنين في حبرون "(٧٧).

ومع كل هذا التدمير والإحراق لأورشليم لم يتمكن البنياميون واليهوذيون من طرد الكنعانيين واضطروا إلى المعيشة معهم في أورشليم "وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم "(٧٨). وانطبق هذا الوضع التركيبي لأورشليم على سكان كل أرض الكنعانيين خلال عصر القضاة، " وأفرايم لم يطرد الكنعانين الساكنين في جازر فسكن الكنعانيون في وسطه في جارز. زبولون لم يطرد قطرون ولا سكان نهلول فسكن الكنعانيون في وسطه ... ولم يطرد أشير سكان عكو ولا سكان صيدون وأحلب ... فسكن الآشيريون في وسط الكنعانيين سكان الأرض لأنهم لم يطردوهم. ونفتالي لم يطرد سكان بيت شمس ولا سكان بيت عناج بل سكن في وسط الكنعانيين سكان الأرض "(٧٩). وعبارة لم يطردوهم المتكررة في هذه الفقرات وغيرها هنا عبارة تركز على الفشل في طردهم وعدم المقدرة على الاستيلاء على أرض الكنعانيين بسبب المقاومة الكنعانية، وقد أثر كتاب العهد القديم اختيار هذه العبارة " ولم يطردوهم " حتى يستشعر منها تسامح بني إسرائيل وسماحهم لسكان

الأرض الأصليين بالسكن معهم بينما هي تدل أصلاً على العجز أو الفشل في طــرد الكنعانيين.

قد أدى هذا الوضع السكاني المركب لأورشليم وغيرها من مــدن الكنعــانيين إلى اندماج بني إسرائيل في الكنعانيين اندماجًــا كــاملاً فعبــدوا آلهــة الكنعــانيين وتزوجوا من بناتهم وزوجوا بناتهم للكنعانيين :" فسكن بنو إســـرائيل فـــي وســـط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والخويين واليبوسيين. واتخـــذوا بناتـــهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم(٨٠). وتشير هذه الفقرة السابقة إلــى الاندماج الكامل لبني إسرائيل في السكان العرب أصحاب الأرض اندماجًـــا كـــاملاً خالصًا على المستوى الديني حيث تشير عدة نصوص إلى التخلي عن التوحيد ممثلاً في عبادة يهوه والانخراط في عبادة الآلهة الأجنبية ومعظمها آلهة عربيـــة كنعانيـــة وفلسطينية: " وعبدوا البعليم والعشتاروث وآلهة أرام وآلهة صيدون وآلهـــة مـــوآب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبدوه "(٨١).

ونتيجة هذا الاندماج أن الأرض ظلت كنعانية وأورشليم أيضًا ظلت يبوســـية كنعانية عربية " وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوســـيين ســـكان الأرض" (صموئيل الثاني ٥:٦). ونجد داود يلجأ إلى شـــراء قطعـــة أرض مـــن صاحبـــها اليبوسي ليبني عليها مذبحًا للرب : " وجاء جاد في ذلك اليوم إلى داود وقـــال لـــه أصعد وأقم للرب مذبحًا في بيدر أرونة اليبوسي ... وقال الملـــك لأرونـــة لا بـــل اشتري منك بثمن ولا أصعد للرب محرقات مجانية فاشـــترى داود البيـــدر والبقـــر بخمسين شاقلاً من الفضة. وبنى داود هناك مذبحًا للرب وأصعد محرقات وذبـــائح سلامة "(٨٢).

وفي عهد سليمان عليه السلام استمرت عملية الاندماج هذه خاصة من خـــلال الزواج ويروي العهد القديم عن سليمان نفسه أنه تزوج من كنعانيـــات ومصريـــات

وعربيات من أمم مختلفة :" وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة من بنت فرعون موآبيات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم ... فالتصق سليمان لهؤلاء بالمحبة وكانت له سبع مائة من النساء السيدات وثلاث مائة من السراري فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساؤه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود. فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين " (الملوك الأول:١-١٣) هذه رواية العهد القديم عن سليمان عليه السلام وهي رواية غير مقبولة إسلاميًا، ولكنها تشير من وجهة نظر العهد القديم إلى الاختلاط الاجتماعي بالكنعانيين وغيرهم، وما نتج عنه من اندماج ديني ووضع سكاني مركب خاصة في أورشليم، وإذا كان هذا هو الوضع في عصر الدولة المتحدة دولة داود وسليمان عليهما السلام فلنا أن نتصور الوضع خلال فترة انقسام المملكة وهي فترة ضعف سياسي عام أدى إلى مزيد من الاندماج والاختلاط وتأكيد الصفة التركيبية لمدينة أورشليم حتى دمارها على يد البابليين في عام ٥٨٦ ق.م.

ثالثًا : الضعف السياسي لمدينة أورشليم خلال فترة الانقسام وخضوعها لمصر أو بابل وخلال العصرين اليوناني والروماني :

رغم اتخاذ مدينة أورشليم عاصمة لمملكة داود وسليمان عليهما السلام فإن انقسام هذه المملكة بعد موت سليمان عليه السلام أدى إلى دخول المدينة في فترة من الضعف السياسي الشديد فقد ظهرت لها مدينة منافسة هي السامرة عاصمة الإسرائيليين في الشمال والتي بنيت لكي تنافس أورشليم سياسيًا كعاصمة لدولة الشمال، ودينيًا كمركز ديني يتجه إليه الشماليون بدلاً من اتخاذهم أورشليم كمركز ديني به بيت الرب الذي بناه سليمان. ولكي تتحقق المنافسة الفعلية بنى أول ملوك إسرائيل الشمالية بيتين في الشمال في بيت أيل وفي دان ليحلا مكان " بيت الرب "

في أورشليم. وقد تعرضت المدينة لما تعرضت له مملكة يهوذا بشكل عام من أزمات سياسية تاريخية بسبب الوضع الجغرافي المتوسط لفلسطين عامة في طريق القوى العظيمة في الشرق الأدنى القديم حيث كانت دائمًا وأبدًا منطقة صراع بين مصر في الجنوب وأشور وبابل في الغرب. وبعد سقوط إسرائيل الشمالية في يد الآشورين في عام ٧٢١ ق.م ظل الجنوب الفلسطيني، وعاصمته أورشليم، يعاني من هذا الموقف السياسي المتأزم بين مصر وبابل حيث تردد ملوك يهوذا بين الولاء المعتاد لملوك مصر الواقعة على الحدود الجنوبية وبين إعلان التبعية لبابل في فترات سيادتها وضعف المصريين أو فتور علاقتهم بملوك يهوذا. ففي السنة الخامسة من ملك رحبعام بن سليمان يحتل شيشق ملك مصر أورشليم ويأخذ ما بها من خزائن " بيت الرب " وبيت الملك (الملوك الأول ١٤ : ٢٥-٢٦). وتتعرض أورشليم للغزو الآشوري على يد سنحاريب ملك أشور وزمن حزقيا ملك يهوذا والذي دفع ضريبة لآشور ثم هدده ملك أشور بإرسال جيش عظيم إلى أورشليم بسبب لجوء حزقيا إلى مصر (الملوك الثاني ١٨ : ١٣-٢٢).

في أيام يوشيا ملك يهوذا يخرج الفرعون نخو ملك مصر لمقابلة ملك أشور ولمحاربته ؛يخرج يوشيا لمحاربة فرعون مصر فيتقل في مجدو ويعين الفرعون بدلاً منه ابنه الياقيم مغيرًا اسمه إلى يهود ياقيم بعد أن أير الفرعون يهوأحاز الذي عين بعد مقتل يوشيا ودفعت يهوذا الجزية لمصر. وفي عهد يهوياقيم يقوم ملك بابل نبوخذ ناصر بغزو يهوذا ويخضع له يهوياقيم ثلاث سنوات ثم يتمرد على نبوخذ ناصر الذي يرسل إليه جيشًا لهزيمته، وفي عهد يهوياكين يحاصر نبوخذ ناصر أورشليم، ثم يستولى على المدينة، ويسبي أهلها إلى بابل ويحرق هيكلها ويدمرها. وهكذا تقع المدينة تحت تأثير المتغيرات السياسية والعسكرية في الشرق الأدنى

القديم ولا تستطيع حماية نفسها من الغزوات الدائمة للآشوريين والبابليين والمصريين.

وفضلاً عن الغزو الخارجي وقعت أورشليم أيضًا ضحية الصراعات السياسية والعسكرية بين الشمال والجنوب الفلسطيني حيث عاشت الدولتان منذ الانقسام حالة مستديمة من الصراع السياسي والعسكري والديني، عبرت عنها بعض فقرات العهد القديم أفضل تعبير :" وكانت حرب بين رحبعام ويربعام كل أيام حياته : وكانت حرب بين آسا وبعهشا ملك إسرائيل كل أيامها "(٨٣). وقد استمرت هذه الحالة من العداء بدون توقف حتى سقوط مملكة إسرائيل الشمالية في يد الآشوريين عام ٧٢١ ق.م.

وبالإضافة إلى هذا الصراع الداخلي بين دولتي الشمال والجنوب وقعت أورشليم ودولة يهوذا تحت الضغط السياسي والعسكري المستمر للكنعانيين والأدوميين والآراميين والموآبيين والفلسطينيين وغيرهم من القوى المحيطة بفلسطين أو التي بداخلها والتي حاربت الدولتين معًا، أو دخلت في تحالفات سياسية وعسكرية مع إحدى هاتين الدولتين ضد الأخرى. كما حدث بين بنهدد ملك أرام الساكن في دمشق وبين أساملك يهوذا ضد بعشا ملك إسرائيل (الملوك الأول ١٥ : ١٨-٢٠)، وفي بعض فترات السلم بين إسرائيل ويهوذا تحالفت الدولتان ضد بعض أعدائهما مثلما حدث بين يهورام بن أخاب ملك إسرائيل ويهو شافاط ملك يهوذا ومعهم ملك إدوم ضد ميشع ملك موآب (الملوك الثاني ٣ : ٦-١١). وتقع أورشليم تحت تهديد حزائيل ملك أرام في عهد يهواش ملك يهوذا الذي يضطر إلى دفع جزية لملك أرام ويدفع إليه كل الذهب الموجود في خزائن بيت الرب وبيت الملك (الملوك الثاني ١٢ : ١٧-١٨) وظل حزائيل ملك أرام يضايق إسرائيل الشمالية خلال عصر ملكها يهوأحاز (الملوك الثاني ١٣ : ٢٢). وفي عهد آحاز ملك يهوذا

يتحالف ففحج بن رمليا ملك إسرائيل مع رصين ملك أرام ضد أورشليم ويصعدون لمحاربتها ويضطر أحاز إلى الاستعانة بتجلاث بلاسر ملك أشور قائلا :" أنا عبدك وابنك اصعد وخلصني من يد ملك أرام ومن يد ملك إسرائيل القائمين عليّ " (الملوك الثاني ١٦ : ٧-٨).

وبعد وقوع الغزو البابلي وسقوط أورشليم في يد البابليين يتم سبي سكان المدينة إلى بابل بعد إحراق المدينة وتدميرها وهدم أسوارها وقد نتج عن الغزو البابلي تفريغ أورشليم من سكانها اليهود وإرسالهم منفيين إلى بابل :" وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار. وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة. وسبي الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيدًا إلى أن ملكت مملكته فارس "[٨٤].

توضح هذه الأحداث في مجملها مدى الضعف السياسي الشديد الذي كانت عليه أورشليم خلال عصر ملوك يهوذا. فقد ظلت المدينة مهددة سياسيًا وعسكريًا وبشكل متواصل بالأخطار الأجنبية من جانب مصر وأشور وبابل والأخطار الداخلية من جانب الآراميين والموآبيين والكنعانيين والفلسطينيين والآدوميين ومن جانب ملوك إسرائيل في الشمال الأمر الذي يؤدي بنا في النهاية إلى الحكم على المدينة بأنها لم يكن لها أي ثقل سياسي أو عسكري خلال عصور ملوك يهوذا (٥٨٦ ق.م).

وفي عام ٥٨٧ ق.م سقطت القدس تحت حكم البابليين بعد حصارها وقد تم تدمير المدينة على يد نبوخذ نصر، وقد تم نفي معظم سكانها اليهود إلى بابل، وظلت المدينة تحت الحكم البابلي حتى ظهور القوة الفارسية التي أسقطت البابليين وفرضت السيطرة الفارسية على الشرق الأدنى القديم. وفي عام ٥٣٦ ق.م أصدر الملك الفارسي قورش الفرمان الخاص بعودة اليهود المسبيين إلى فلسطين.

وعلى الرغم من هذا القرار فإن الوضع اليهودي المستقر في بابل أدى إلى رفض قرار العودة ولذلك ركز أنبياء هذه المرحلة - وأهمهم عزرا ونحميا - على حث اليهود على العودة دون جدوى - وقد ظلت القدس خالية من اليهود وقد سقطت أسوارها وحرقت بواباتها ولم تفلح جهود عزرا ونحميا في استعادة اليهود إليها.

وفي العصر اليوناني خضعت فلسطين لليونان تحت حكم الإسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م وقد كانت القدس موضعًا للعديد من الحروب بعد موت الإسكندر في ٣٢٣ ق.م وقد نفى بطليموس الأول ملك مصر سكانها وطردهم منها وقد وقع بقية سكانها تحت تأثير الثقافة الهللنستية. وتم تحويل القدس إلى مدينة يونانية خاضعة للثقافة اليونانية العامة ولنظام الحياة الاجتماعية السائد في الإمبراطورية اليونانية. في عام ١٦٧ ق.م أصدر أنطيوخوس عدة قرارات ضد اليهودية،و تم تطبقها بحزم في القدس، وتم تدنيس الهيكل بالآلة اليونانية وحوله إلى مذبح للإله ديونتيسوس وأقام معبدًا كبيرًا للإله زيوس أوليمبيوس، وتم طرد اليهود من المدينة ولم يبق فيها إلا اليهود الهيللينستيون. وبعد عدة ثورات للحشمونيين خلال الفترة ١٥٢-١٤١ق.م وقعت المدينة مرة أخرى تحت الحصار في عصر يوحنا هيركانوس.

وفي عام ٦٤ ق.م تقع المدينة تحت حصار بومباي وفي عام ٦٣ ق.م سقطت أسوار المدينة، واحتل الرومان الهيكل في عام ٤٠ ق.م وقعت المدينة تحت حكم البارثيين الذين غزوا جنوب فلسطين كحلفاء لمثاثياس أنيجونوس، ثم اقتحم هيرودوس في ٣٧ ق.م أسوار القدس واحتل المدينة وقد حكم جنوب فلسطين لمدة ثلاثة وثلاثين عام ٣٧-٤ ق.م وغير شكل القدس تمامًا، وأصبحت القدس مدينة رومانية واحتلت الآلهة الرومانية موقعها فيها.

في عام ٧٠م سقطت القدس في يد الرومان على يد تيتوس TITUS وتم تدمير الهيكل وقتل السكان اليهود، أو طردهم، وتحولت المدينة إلى مستعمرة

رومانية وتغير اسمها إلى إيليا كابيتولينا Aelia Capitolina وأصبحت مركزًا للعبادة والآلهة الرومانية بعد احتلال هادريان لها مرة أخرى وطرده لليهود منها وتنصر العديد منهم.

وفي عام ٣٢٤م تقع فلسطين تحت حكم الإمبراطور قسطنطين الذي تحول إلى المسيحية، وتصبح القدس مدينة مسيحية، ويتم تجديد القرار الروماني بعدم السماح لليهود بدخول المدينة، ويستمر هذا الوضع حتى الفتح الإسلامي للقدس في عام ٦٣٨م، لتصبح القدس مرة أخرى مدينة عربية إسلامية.

الفصل الرابع

المؤرخون الجدد
والتاريخ الفلسطيني القديم



المؤرخون الجدد والتاريخ الفلسطيني القديم

ظهرت في السنوات العشر الأخيرة بعض الكتابات العلمية الخطيرة في تاريخ فلسطين بشكل خاص وفي تاريخ الشرق الأدنى القديم بشكل عام، ووجه الخطـــورة في هذه الأعمال خروجها على الخط التقليدي في الكتابة التاريخيـــة عـــن فلســطين والشرق الأدنى القديم. حيث سيطرت رؤيتان على هذا المجـــال : أولـــها الرؤيـــة الدينية التوراتية التقليدية المتمسكة بالروايات التاريخية الواردة في التوراة على أنـــها أخبار تاريخية صحيحة لا يقترب منها الشك وتكون في النهاية تاريخـــا مقدسًـــا لا يمكن نقده أو تقييمه أو إخضاعه في أية صورة من الصور لمقاييس النقد التـــاريخي المعروفة، كما أنه لا يخضع للمعطيات التاريخية والآثارية التي تبحث عـــن التقـــدم العلمي الهائل في مجال علمي التاريخ والآثار، بل على العكس تأخذ هـــذه الرؤيـــة بتفسير الاكتشافات التاريخية والأثرية بالشكل الذي لا يخرج على معطيات التـــوراة وبقية أسفار العهد القديم. ومن المهم الإشارة هنـــا إلـــى أن الدراســـات التاريخيـــة الخاصة بفلسطين في الغرب انتقلت من الدوائر العلمية المتخصصـــة فـــي أقســـام التاريخ بالجامعات الغربية إلى الدوائر الدينية في كليـــات اللاهـــوت والمؤسســـات التعليمية الدينية التي سيطرت سيطرة تامة على الكتابة التاريخية في هـــذا المجـــال لتحقيق عدة أهداف من أهمها منع الوصول إلى أية نتائج تاريخيـــة تتنـــاقض مـــع الرؤية الدينية التوراتية أو مع الرؤية التاريخية العامة للعهد القديم. وضرورة التحكم الديني في العمل التاريخي والأثري حتى لا تتأثر قداسة العهد القديـــم بالاكتشـــافات التاريخية والأثرية[١].

والهدف الثاني وراء هذه السيطرة اعتبار مهمة الكتابة التاريخية عن فلســطين مهمة دينية يقوم بها المؤرخون الملتزمون دينيًا والمؤمنون حرفيًا بإلهيـــة مصـــدر

المادة التاريخية في العهد القديم وفي أنها لا تقبل النقد ولا تخضع للتقييم على أسس من النقد التاريخي والحرص على إبعاد المؤرخ العلماني أو غير المؤمن عن الكتابة التاريخية في هذا المجال.

أما الرؤية الثانية المسيطرة على الكتابة التاريخية في مجال التاريخ الفلسطيني فهي الرؤية الصهيونية الحديثة والمعاصرة، والتي نشأت مرتبطة بالحركة القومية اليهودية التي تمخضت عن ظهور الحركة الصهيونية. وهذه الرؤية تتصف بأنها رؤية سياسية للتاريخ الفلسطيني تكتبه وتفهمه من وجهة نظر قومية يهودية. وهي لا تتعارض مع الرؤية الدينية السابقة الذكر بل نجدها رغم صفتها السياسية تعتمد على المعطيات الدينية وترى فيها مبرراً كافيًا للمضي في برامجها السياسية ومسوغاً مهمًا للقيام بكل الأعمال الاستيطانية والاستعمارية، كما أنها إحدى الوسائل الصهيونية الأساسية في إقناع الرأي العام اليهودي بضرورة الصهيونية بل وحتميتها في مسيرة التاريخ اليهودي العام. ولقد قدمت هذه الرؤية الصهيونية التاريخية أكبر عملية تزييف للتاريخ في التاريخ. وقد مارست الدوائر الصهيونية كل أشكال الضغط ووسائل التهديد والابتزاز للوقوف في طريق أية محاولة موضوعية في كتابة التاريخ الفلسطيني وفرضت سيادتها التامة على كل عمليات الكتابة التاريخية في هذا المجال. وسيطرت على أقسام التاريخ في الجامعات الغربية ووجهتها وجهة صهيونية تخدم الأهداف القومية اليهودية. وكانت النتيجة إعادة كتابة تاريخ فلسطين في الاتجاه الساعي إلى إثبات ما يسمى بالحقوق التاريخية لليهود في فلسطين. ولم تتوقف عند هذه الحدود بل تجاوزتها إلى إعادة كتابة تاريخ الشرق الأدنى القديم. وبالذات تاريخ سوريا وبلاد ما بين النهرين. ونجحت في نشر بعض النظريات التي تهدف إلى تأصيل الوجود اليهودي في فلسطين من ناحية واختلاق دور لليهود في حضارة الشرق الأدنى القديم.

وفي ظل هذه السيطرة الدينية والصهيونية على مجال الكتابة التاريخية كان من الصعب. بل من المستحيل أن يظهر اتجاه موضوعي يتناول دراسة تاريخ فلسطين والشرق الأدنى دراسة موضوعية تقوم على أساس علمي تدعمه الأدلة التاريخية والأثرية ولا يخضع للرؤية الدينية التوراتية أو للرؤية الصهيونية.

ومع ذلك فقد شهدت السنوات الأخيرة ظهور بعض الدراسات التاريخية التي خرجت على هذا الخط الديني الصهيوني في الكتابة التاريخية. والمثير للدهشة أن تيارًا يهوديًا معارضًا لهذا الاتجاه الديني والصهيوني بدأ في الظهور داخل إسرائيل نفسها وقد تسمى هذا الاتجاه باسم " المؤرخون الجدد ". ويبدو واضحًا أن هناك علاقة بين ظهور المؤرخين الجدد في إسرائيل وتطور الاتجاه الرافض للدوائر الدينية والصهيونية في كتابة التاريخ الفلسطيني مع الاعتراف باختلاف دوافع الفريقين. فالدافع المتحكم في ظهور هذا الاتجاه بين بعض المؤرخين في الغرب هو دافع علمي يؤمن بالموضوعية العلمية ويرفض سيطرة الدوائر الدينية على الأمور المرتبطة بالعلم والتاريخ والآثار ويطالب بالحرية العلمية المطلقة، ويرفض الضغوط التي تمارسها بعض الدوائر الدينية والعلمية في الغرب. ويمثل هذا الاتجاه المؤرخ توماس طومسون وما تعرض له من ضغوط وممارسات بغيضة لإبعاده عن هذا المجال الخطير الذي خاض فيه. أما الدافع الذي تحكم في المؤرخين الجدد في إسرائيل فهو يمثل لحظة صدق – نرجو ألا تكون عابرة – أصابت هذا الفريق من المؤرخين الإسرائيليين الذين اعترفوا بعملية تزييف التاريخ الفلسطيني التي جرت على يد مؤرخي الصهيونية والتي انتهت إلى إسكات التاريخ الفلسطيني واختلاق التاريخ اليهودي في فلسطين. وقد امتد تأثير المؤرخين الجدد في إسرائيل إلى بعض ضباط الاحتياط العاملين بشعبة التاريخ في الجيش الإسرائيلي.

وتتحدث مدرسة المؤرخين الجدد عن الأساطير التي أحاطت بقيام دولة إسرائيل حيث يرون أن إسرائيل قامت على أساس خاطئ بداية من عمليات سلب أراضي المواطنين الفلسطينيين إلى رفض مقترحات السلام المتكررة، ونهاية بعمليات التحريض المستمر على الحرب.

أما خارج إسرائيل فقد تطور هذا الاتجاه الجديد لدراسة التاريخ اليهودي دراسة موضوعية بعيدًا عن الاتجاهات اللاهوتية والرؤى الصهيونية. وفي هذا الإطار لابد من الإشارة إلى عملين مهمين في هذا الاتجاه. العمل الأول هو "اختلاق إسرائيل القديمة : إسكات التاريخ الفلسطيني " لمؤلفه الأمريكي كيث وايتلام (تمت ترجمة هذا الكتاب المهم إلى اللغة العربية في سلسلة عالم المعرفة العدد ٢٤٩ عام ١٩٩٩م، ترجمة د. سحر الهنيدي، ومراجعة د. فؤاد زكريا). أما العمل الثاني المهم في هذا الاتجاه فهو " أسفار العهد القديم في التاريخ اختلاق الماضي " لمؤلفه توماس طومسون(٢). والكتابات يصدران عن روح نقدية جريئة اقتحمت المنطقة المحرمة وقالت كلمة الحق دون تخوف أو تردد مع الاستعداد التام لتقبل نتائج هذه الجرأة وما يمكن أن تأتي به من أذى أو ضرر شخصي كما حدث مع توماس طومسون الذي تعتبر مسيرته العلمية سلسلة من الجهاد العلمي ضد السيطرة اللاهوتية والصهيونية على دوائر البحث في مجال التاريخ الفلسطيني ومجال دراسات العهد القديم. لقد أثارت كتابات طومسون جدلاً عنيفًا ضده وردود فعل عنيفة انتهت إلى حرمانه من الحصول على درجة الدكتوراه في أوربا ومنعه من نشر أعماله لفترة من الزمن وحرمانه من التدريس الجامعي لمدة عشر سنوات عاشها حبيس بيته. ولقد استفاد طومسون من هذه العزلة الإجبارية في مواصلة البحث في نفس المجالات المحرمة لكي يصل إلى نتائج علمية مذهلة ضمنها هذا الكتاب المهم. وقد تغيرت الظروف بعد ذلك الأمر الذي سمح له بنشر أعمال طومسون. وتمثلت هذه الظروف الجديدة في تغير مناخ البحث العلمي في أوربا

وأمريكا، وازدهار دور علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا في الدراسات التاريخيـــة، وتحرر علماء الآثار من سيطرة الإطار التوراتي على عملهم، وانطلقت الدراســات الأدبية للتوراة وكتب العهد القديم، كما ارتفع شأن علــم تــاريخ الأديــان لينــافس الدراسات اللاهوتية. كل هذه الظروف مهدت الطريق لظهور هذا الاتجاه الجـــريء في دراسة العهد القديم ورفض معظم النظريات التقليدية السائدة.

وتعود أهمية كتاب " أسفار العهد القديم في التاريخ " لتوماس طومسون إلـــى أن مؤلفه تمكن من التحرر من دائرة التـــأثير الدينـــي والصـــهيوني فـــي الكتابـــة التاريخية، والهروب من خطاب الدراسات الدينية التوراتية التي فرضت نفسها فـــي هذا المجال، ووجهت الكتابة التاريخية لخدمة المصالح الدينية اليهوديـــة والمصـــالح الصهيونية، ونجحت في ربط تاريخ فلسطين بالدراسات الدينية التي تسيطر عليـــها الجغرافيا التاريخية للتوراة، والمفاهيم التوراتية الخاصة بالعهد والاختيـــار الإلـــهي لبني إسرائيل والخلاص، كما تعود أهمية الكتاب إلى محاولة مؤلفه الجريئـــة إلـــى تحرير علمي التاريخ والآثار من سيطرة إلى الحاخامات والصهاينة الذين حرصـــوا على التعتيم على الاكتشافات التاريخية والأثرية وتزييـــف نتـــائج هذيـــن العلميـــن لمصلحة الرؤية القومية الدينية اليهودية والصهيونية وما نتج عن ذلك مـــن تعتيـــم شديد على التاريخ الفلسطيني القديم والحديث، وتغييـــب الوعـــي التـــاريخي لـــدى المؤرخين في الغرب بإصدار عدد ضخم من الدراسات التاريخية التي تسيطر عليـها النظرة الدينية التوراتية والنظرة الصهيونية، وإخراج عدد من الموسوعات ودوائـــر المعارف التي جعلت من فلسطين بلدًا يهوديًا خالصًا، عبر التاريخ ا لقديـــم وخـــلال التاريخ المسيحي والإسلامي. وقد تم تزييف فلسطين والشرق الأدنى القديـــم، مـــن خلال طمس الهوية العربية للمنطقة والتأكيد على عدم وجـــود تـــاريخ عربـــي أو حضارة عربية وقد تم إلغاء المـــواد الخاصـــة بفلســـطين مـــن دوائـــر المعـــارف والموسوعات ووضعت مكانها مواد خاصـــة بـــالعبريين والإســـرائيليين واليـــهود.

وأصبح التاريخ الفلسطيني مسكوتًا عنه تمامًا وإذا تم ذكر شئ عنه، فعلى هامش التاريخ الإسرائيلي. وتقوم النظرية الأساسية في هذا الكتاب المهم على ضرورة النظر إلى التوراة وبقية أسفار العهد القديم على أنها ليست كتبًا في التاريخ، وأن مسألة الأصول التاريخية التي اهتم بها كتاب التوراة لا تنتمي إلى التاريخ ولكنها مسألة لاهويته بحتة. وتنتهي دراسة طومسون إلى أن غياب السياق التاريخي الموثوق فيه يمثل أهم مشاكل البحث المرتبط بأسفار العهد القديم. كما أن غياب منهج البحث التاريخي أدى إلى فشل البحث عن مكان للعهد القديم في التاريخ. وذلك مع إصرار علماء العهد القديم على مقاومة الدراسات التاريخية الموضوعية، والدفاع الشديد عن الرؤية التاريخية للعهد القديم وعدم الاعتراف بنتائج علمي التاريخ والآثار.

ويعتقد المؤلف أن القصص التي تتحدث عن أصول بني إسرائيل لا صلة لها بأحداث التاريخ، ولكنها تعكس في المقام الأول مسائل مرتبطة بقضية الهوية ولذلك فدراسات العهد القديم في أمس الحاجة إلى سياق تاريخي سليم لنصوص العهد القديم، فهناك انفصام تام بين علم الآثار الفلسطينية ودراسات العهد القديم بالإضافة إلى التناقض الواضح بين معطيات التاريخ والآثار وموروثات العهد القديم، ويطالب المؤلف في جرأة شديدة أن يتخلى علماء العهد القديم من رجال الدين عن سيطرتهم على تحديد دور علم الآثار في كتابة التاريخ. ويطالب أيضًا علماء آثار العهد القديم بالتخلي عن العهد القديم بصفته التاريخية وعدم اتخاذه كمحور فكري أساسي لكتابة التاريخ الفلسطيني. وهو يشير إلى تناقض معلومات العهد القديم التاريخية مع معطيات علم الآثار بقوله : " عندما نبدأ في وصف التطورات التاريخية التي طرأت على المناطق الواقعة في الجنوب السوري في ضوء البيانات الأثرية نجد صورة لماضي فلسطين تختلف تمام الاختلاف عنها في العديد من كتب آثار العهد القديم، ويعطي عدة أمثلة على هذا التناقض من بينها ثلاث روايات مختلفة داخل العهد

القديم عن غزو أورشليم وروايات متناقضة عن داود وسليمان عليهما السلام، وغير ذلك من الأمور التي يركز فيها كاتب العهد القديم على المحـــور اللاهوتـــي غـــير مكترث بالتناقض التاريخي الواضح.

ويؤكد المؤلف على ما يسميه السمة التاريخية المتعمدة للعهد القديم؛ فكتـــاب العهد القديم استعانوا ببيانات مأخوذة من نصوص وسجلات قديمة وأشـــاروا إلـــى العديد من الشخصيات والأحداث الكبرى في الماضي.

ولكن وجود هذه المادة التاريخية لا يعني أنها مقصودة لذاتـــها أو أن العـــهد القديم أصبح بذلك مصدرًا تاريخيًا. فالعهد القديم من وجهة نظر طومسون لا يعـرف شيئًا تقريبًا عن معظم الأحداث التحولية الكبرى في تاريخ فلسطين ولا يعرف مـــن الأسباب التاريخية إلا سببًا واحدًا وهو يهوه إله فلسطين القديم. ولا يعرف شيئًا عـــن المعارك التاريخية الكبرى، ولا عن فترة الوجود العبري في مصر ... وغير ذلـــك كثير. فلغة العهد القديم ليست لغة تاريخية بل هي لغة أدبية قصصية.

إن التاريخ الماضي الذي تقدمه أسفار العهد القديم تاريخ مختلق حســـب رأي طومسون الذي يتفق مع كيث وايتلام في فكرة اختلاق إسرائيل القديمة. وهي فكـــرة نفذها محررو العهد القديم الذين أســـكتوا التـــاريخ الفلســـطيني واختلقـــوا التـــاريخ الإسرائيلي. وقد فعل المؤرخون الصهاينة في العصر الحديث ما فعله مؤرخو العـــهد القديم في الماضي، فقد أعاد المؤرخون الصهاينة كتابة تـــاريخ فلســـطين وجـــردوا الفلسطينيين من أرضهم من خلال العمل الصهيوني السياسي والعسكري ومن خـــلال طمس معالم هذا التاريخ عبر العصور، وبهذا تم تجريد الفلسطينيين مـــن أرضـــهم ومن تاريخهم في نفس الوقت.

وقد عمل المؤرخ الصهيوني في العصر الحديث على تعميق الأساطير الدينية التوراتية في الوعي الغربي واعتماد العهد القديم كمصدر أساسي للتاريخ، ووضـــع

قاعدة لاهوتية تبرر أعمال العنف والعدوان من خلال توظيف النصوص الدينية لخدمة المصالح الصهيونية في فلسطين ولتحقيق احتلال الأرض واستيطانها بعد طرد سكانها وترويعهم وإبادتهم امتثالاً لمبادئ الحرب التي أقرتها التوراة وبعض أسفار العهد القديم الأخرى.

وقد اعتمد المؤرخ الصهيوني الحديث على نفس الأسلوب الذي اعتمد عليه مؤرخ العهد القديم في التخلص من التاريخ الفلسطيني، وذلك من خلال التعتيم المقصود على أخبار الفلسطينيين وأحداث تاريخهم القديم والحديث، وإحاطة هذه الأخبار بالغموض، والتشكيك في صحتها والهدف النهائي هو إسقاط الفلسطينيين من ذاكرة التاريخ.

وفي النهاية نرى أن هذا الاتجاه الموضوعي الجديد الذي بدأه طومسون وكيث وايتلام في الغرب أو المؤرخون الجدد في إسرائيل يحتاج إلى دعم وتأييد كبيرين لمواجهة الضغوط الصهيونية المتطرفة التي دأبت على كبت الحرية الأكاديمية في الجامعات الأوربية والأمريكية ووأد المحاولات الموضوعية القليلة التي تظهر بين الحين والآخر للبحث عن الحقيقة التاريخية الضائعة وسط هذا الطوفان الهائل من الكتابات الصهيونية المزيفة للتاريخ.

ولعل من أهم أشكال الدعم والتأييد الذي يحتاجه هذا الاتجاه الموضوعي لدى بعض المؤرخين في الغرب يكمن في تأسيس مدرسة تاريخية عربية جديدة تفسر النتائج التي توصلت إليها هذه الكتابات الغربية وتفصلها وتنشرها بين جماهير القراء في الغرب من خلال التأليف والترجمة إلى اللغات الأوربية، وتنمي لدى العرب الحس التاريخي، وتقوي الدافع القومي ولا تتوقف أبدًا عن الكتابة في مجال التاريخ الفلسطيني حتى لا يطغى الواقع السياسي على حقائق التاريخ.

الخاتمة

تستمد القدس عروبتها في التاريخ القديم من عروبة فلسطين التي تستمد بدورها عروبتها من عروبة الشرق الأدنى القديم. وقد حرص المؤرخون الصهاينة منذ نشأة الصهيونية على طمس وتشويه عروبة القدس من خلال مشروع علمي وثقافي شامل يعمل على تشويه تاريخ المدينة، والبلد الذي تنتمي إليه المدينة، والإقليم الذي ينتمي إليه هذا البلد. وهكذا خرجت الصهيونية بنظرية شاملة هدفها تهويد تاريخ القدس وفلسطين والشرق الأدنى القديم.

وقد حاولنا في الدراسة السابقة إثبات عروبة القدس من خلال التأكيد على عروبة فلسطين والتأكيد على عروبة الشرق الأدنى القديم. وتعتبر هذه الدراسة مكملة لدراسة سابقة بعنوان : " **رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته ١٩٩٦م** " قدمنا فيها الأدلة الكافية على أن الشرق الأدنى القديم شرق عربي، وأن الوجود العبري أو اليهودي فيه كان دائمًا وأبدًا وجودًا هامشيًا.

ومن أهم الأدلة التاريخية على عروبة فلسطين ما وقع باليهود من شتات مستمر نتيجة لأحداث السبي أو نتيجة للأزمات الاقتصادية والسياسية التي تعرضوا لها خلال التاريخ القديم. وقد نتج عن هذه الأحداث تركز الوجود اليهودي خارج فلسطين فحياة العبريين في مصر استمرت لأربعة قرون ونصف. وخروج اليهود إلى أشور وبابل في العراق القديم استمر لما يقرب من ثلاثة قرون. ولم يتحمس يهود العراق للعودة إلى فلسطين بعد سقوط الحكم البابلي على يد الفرس، وأصبح المركز العراقي للحياة اليهودية أهم المراكز اليهودية في العالم القديم وإليه يعود

معظم التراث اليهودي الأساسي، ومن أهم عناصر هذا التراث التوراة ومعظم أسفار العهد القديم والتلمود البابلي فكلها من صناعة اليهود في العراق.

وقد أدى الاحتلال اليوناني والروماني لفلسطين إلى تفريغ فلسطين من اليهود لتظهر مراكز يهودية جديدة من أهمها المركز الإسكندري، وينتهي الوجود اليهودي في فلسطين بالسبي الروماني والشتات اليهودي العام الذي استمر حتى يومنا الحالي.

وتخضع القدس لنفس الظروف السياسية لفلسطين ويتم تفريغها من اليهود تفريغًا تامًا بعد أحداث السبي الآشوري والبابلي والروماني. وقد تحولت في النهاية إلى معسكر للجيش الروماني وتم تفريقها من اليهود تمامًا وعلى المستوى الديني لم تتمتع القدس بالقداسة الدينية التي يدعيها اليهود لها. فالمدينة عربية الأصل والتاريخ، وأسماؤها في التاريخ كلها أسماء عربية، وليس لها اسم يهودي في تاريخها الطويل. ولم تكن مدينة مركزية للديانة اليهودية حيث لعبت آشور وبابل والإسكندرية الدور الأهم في تطور الديانة اليهودية. ولم يكن لفلسطين عمومًا أو للقدس بخاصة دور مهم في نشأة الديانة أو في تطورها.

وفي الفترة التي اتخذت فيها القدس عاصمة لمملكة داود وسليمان عليهما السلام سرعان ما انقسمت المملكة ونتج عن الانقسام السياسي انقسام ديني خطير زعزع مكانة القدس السياسية والدينية بشكل كبير ترك تأثيره السلبي على وضعية القدس في الديانة اليهودية وفي التاريخ اليهودي. فقد ظهرت شكيم أو السامرة فيما بعد كمركز ديني خطير منافس لأورشليم وممثل لاتجاه أو تيار ديني جديد وممهد لظهور أقوى الفرق الدينية اليهودية المنافسة لليهودية التقليدية وهي فرقة يهود السامرة أو اليهود السامريين. وأصبحت السامرة – بهياكلها وبيوتها الدينية – تنافس أورشليم بقوة دينيًا وسياسيًا. ثم يؤدي السبي الآشوري والبابلي والروماني بعد ذلك

إلى نشأة مراكز دينية جديدة وأهم من المراكز الفلسطينية وهي آشور وبابل والإسكندرية. ويؤدي الشتات الروماني إلى تكوين جماعات يهودية مشتتة في كل بلدان العالم القديم داخل الإمبراطورية الرومانية وخارجها وتكوين مراكز جديدة للحياة اليهودية وتفقد فلسطين والقدس مكانتها وتزدهر الحياة اليهودية خارج فلسطين بل وخارج الشرق الأدنى القديم.

وقد أدى ظهور المسيحية في فلسطين إلى تحول القدس إلى مدينة مسيحية كما أدى ظهور الإسلام في النهاية إلى تحولها إلى مدينة إسلامية، وانتهى أي دور سيادي لليهود في المدينة على المستوى الديني والسياسي، وتحول اليهود إلى أقلية في فلسطين تحت الحكمين المسيحي والإسلامي.

ومع ظهور الحركة الصهيونية نشطت الهجرة اليهودي إلى فلسطين والقدس. وبعد وقوع فلسطين تحت الاحتلال اليهودي وقيام دولة إسرائيل بدأت عملية التهويد الكاملة للمدينة. وقد تأجل النظر في قضية القدس إلى ما بعد نهاية المفاوضات على المسارات المختلفة إلى تهديد حقيقي لمستقبل القدس حيث عملت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة على إتمام تهويد القدس وفرض أمر واقعي جديد بشأنها حين تبدأ المفاوضات حولها.

ولا شك في أن عملية تهويد القدس قد تمت بالفعل الأمر الذي سيعرض مستقبلها للخطر ويبدو أن القدس أوشكت على الضياع والمفاوضات حولها لن تبدأ في الوقت الذي تصل فيه خطة تهويدها إلى القمة بحيث يمكن أن نقول وبدون مغالاة أن القدس قد ضاعت بالفعل وتحتاج إلى معجزة لإنقاذها من التهويد والضياع.

الحواشي

حواشي المقدمة :

١- التكوين ٤٦ : ٣.

٢- الخروج ١ : ١-٧.

٣- الخروج ١٢ : ٣٧-٤٠.

٤- الخروج ١٣ : ١٧.

٥- الخروج ١٣ : ٥.

٦- العدد الإصحاح الأول.

٧- العدد ١ : ٤٧.

8- John Bright, A History of Israel, 2nd. Edition, the Westminister Press, Philadelphia, 1972, pp. 268-9.

9- Ibid., p. 269.

10- Ibid., pp. 282-3.

١١- سفر الملوك الثاني ١٥ : ٢٩.

١٢- الملوك الثاني ١٧ : ٥.

حواشي الفصل الأول :

١- الملوك الثاني ١٧ : ٢٣-٢٤، ٢٩-٣٢.

٢- الملوك الثاني ١٨: ٣١-٣٢.

3- W.F. Albright : the Biblical period from Abraham to Ezra a historical survey, Harper, 1949, p. 73.

4- W.F. Albright :From The Stone Age to Chritsanity, Monotheism and the Historical process, Double day and Co., N.Y. 1957, p. 314.

5- John Bright, A History of Israel, p. 27.

وعن المستوطنين من بلاد النهرين في شكيم انظر :

G.E. Wright, Shechem, McGraw-Hill 1967, p. 162.

Albrigth, the Bilical Pariod, p. 74.

وعن المهجرين إلى بلاد النهرين انظر :

Albright, North Israelite deportees in Mesooptamia, Bulletin of the American School of Oriental Research, 149, 1958, pp. 33-36.

٦- سفر الملوك الثاني ١٨ : ١٧.

7- John Bright, A History of Israel, p. 282.s

٨- الملوك الثاني ١٨ : ١٤.

٩- إشعيا ١ : ٤-٩ وانظر :

M. Grant, The History of ancient Israel, p. 139.

10- John Bright, A History of Israel, p. 284.

11- Ibid., p. 284. وانظر الملوك الثاني ١٨ : ١٤-١٦

12- John Bright, A History of Israel, p. 285.

13- Grant, p. 163.

١٤- الملوك الثاني ١٨ : ٣١ ، ٣٢.

15- John Brigth, p. 313.

١٦- عزرا ٤ : ١٠.

١٧- عزرا ٤ : ٩.

18- John Bright, pp. 314-315.

19- Ibid,. p. 325.

٢٠- إرميا ٤٧ : ٥-٧.

٢١- الملوك الثاني ٢٤ : ١٠-١٧.

٢٢- الملوك الثاني ٢٤ : ١٤ - ١٦

حواشي الفصل الثاني :

١- التكوين ٤٦ : ٨-٢٥.

٢- التكوين ٤٦ : ٢٦-٢٧.

٣- التكوين ٤٦ : ٥-٧.

٤- التكوين ٤٦ : ٣.

٥- الخروج ١ : ١-٧.

٦- الخروج ١٢ : ٣٧ ، ٤٠.

٧- الخروج ١٣ : ١٧.

٨- الخروج ١٣ : ٥.

٩- العدد الأصحاح الأول.

١٠- العدد ١ : ٤٧.

11- John Bright, A History of Israel, 2nd. Edition, the Westminister Press, Philadelphia, 1972, pp. 268-9.

12- Ibid., p. 269.

13- Ibid., pp. 272-3.

١٤- سفر الملوك الثاني ١٥ : ٢٩.

١٥- الملوك الثاني ١٧ : ٥.

١٦- الملوك الثاني ١٧ : ٢٣-٢٤ ، ٢٩-٣٢.

١٧- الملوك الثاني ١٨ : ٣١-٣٢.

18- W.F. Albright : the Biblical period from Abraham to Ezra historical survey, Harper, 1949, p. 73.

19- W.F. Albright: From The Stone Age to Christanity, Monotheism and the Historical process, Doubleday and Co., N.Y. 1957, p. 314.

20- John Bright, A History of Israel, p. 27.

انظر :

G.E. Wrighet, Shechem, McGraw-Hill 1967, p. 162.

21- Albright : the Biblical period from Abraham to Ezra, p. 74.

Albright, North Israelite deportees in Mesooptamia, Bulletin of the American School of Oriental Research, 149, 1958, pp. 33-36.

22- Michael Grant, The History of Ancient Israel, Weidenfeld and Nicolson, London, 1986, p. 134.

٢٣- سفر الملوك الثاني ١٨ : ٧. وانظر أيضًا :

John Bright, A History of Israel, p. 282.

٢٤- الملوك الثاني أشعيا ١ : ٤-٩ وانظر :

M. Grant, The History of ancient Israel, p. 139.

25- John Bright, A History of Israel, p. 27.

26- Ibid, p. 284. وانظر أيضًا الملوك الثاني ١٨ : ١٤-١٦

٢٧- الملوك الثاني ١٨ : ٣١ ، وانظر :

John Bright, A History of Israel, p. 285

28- John Bright, p. 313

٢٩- عزرا ٣ : ١٠.

٣٠- عزرا ٤ : ٩.

31- John Bright, p. 314-315.

32- Ibid,. p. 325.

٣٣- ارميا ٤٧ : ٥ – ٧.

٣٤- الملوك الثاني ٢٤ : ١٠ – ١٧.

٣٥- الملوك الثاني ٢٤ : ١٤-١٦.

36- Albright : the Biblical period, p. 84, 105.

37- Max L. Margolis and Alexander Marx, A History of the Jewish People, Atheneum, N.Y. 1969, p. 99.

38- Albright : the Biblical period, p. 84.

39- John Bright, A History of Israel, pp. 330-331.

40- John Bright, pp. 361-362. – وانظر عزرا ١ : ٢ ٤ وأخبار اليوم

41- Albright : the Biblical period, p.87.

42- Ibid,. pp. 88-89

43- Ibid,. p. 93. : وانظر Bright, p. 378.

٤٤- حجي ٢ : ١٠ – ١٤. وانظر Bright, p. 368 .

45- Bright, p. 386

46- Margolis and Marx, A History of the Jewish People, p. 129.

47- Norman Snaith, The Jews From Syrus to Herod Abingdon Press, N.Y., 1956, p. 37.

48- Ibid., p. 39.

49- Salo W. Baron, A Social and Religious History of the Jews, vol. 11, Columbia Univ. Press, and the Jewish Publication of America, Y. Y. and Philadelhia, 2nd , 1952, p. 102.

50- Ibid., p, 102.

51- Ibid., 102.

حواشي الفصل الثالث :

1- S. Moscati, Ancient Semitic Civilizations, Putnam,s Sons, New York, p. 32, 1960.

٢- د. حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم. دار القلم دمشق، ١٩٩٠م، ص١٧، ٥٣، ٥٤.

٣- إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، دار العلم للملايين، بيروت، ص٥٦-٥٤.

٤- عارف باشا العارف، تاريخ القدس، مطبوعات البنك العربي الدولي للمعلومات، ١٩٥١م، ص١١.

٥- نقلاً عن أحمد سوسة، ص٧١٧.

٦- التكوين ١٤ : ١٨-١٩.

٧- أحمد سوسة، ص٧١٥.

٨- حسن ظاظا، المرجع السابق، ص١٧.

٩- المزامير ٢٧ : ٢.

١٠- التكوين ١٤ : ١٨-١٩.

١١- حسن ظاظا، المرجع السابق، ص١٧-١٨.

١٢- التكوين ١٠ : ١٥-١٩.

١٣- القضاة ١ : ٢١.

١٤- القضاة ١٩ : ١٠-١٢.

١٥- أحمد سوسة، المرجع السابق، ص٧١٩.

١٦- صموئيل الثاني ٥ : ٧-٩.

١٧- المزامير ٢٧ : ٢.

١٨- أنجيل يوحنا : ٣ : ٢٣.

١٩- صموئيل الثاني ٥ : ٧-٩.

٢٠- أخبار الأيام الأول ١١ : ٤-٥ ، ٧-٨.

٢١- أخبار الأيام الثاني ٥ : ٢ ، ٦ : ٥-٦.

٢٢- القضاة ١٩ : ١، ٢١ : ٢٤-٢٥.

٢٣- القضاة ١٩ : ١ ، ١٠-١٣.

٢٤- التثنية ٣٤ : ١-٥.

٢٥- يشوع ١ : ١-٧.

٢٦- يشوع ٣ : ٩-١١.

٢٧- يشوع ٣ : ٢٢-٢٤ ، ٩ : ١-٢.

٢٨- يشوع ١٠ : ١-٥.

٢٩- يشوع ١٣ : ٢ ، ٦ ، ١٥ : ١ ، ٨.

٣٠- يشوع ١٥ : ٦٣.

٣١- يشوع ١٦ : ١٠.

٣٢- يشوع : ١٧ : ١٢-١٣.

٣٣ القضاة ١ ٨ ٩

٣٤- القضاة ١ . ٢١

٣٥- القضاة ١ : ٢٩ ، ٣٦.

٣٦- القضاة ٢ : ١١-٤ ، ١٦-١٧.

٣٧- القضاة ٣ : ٥-٧ ، ١ : ٦-٧ ، ١٣ : ١.

٣٨- صموئيل الأول ٢٧ / ١ ، ٧ ، القضاة ١٤ : ١-٤.

٣٩- راعوث ١ : ١-٥.

٤٠- صموئيل الأول ٨ : ١-٨.

٤١- القضاة ٨ : ٢٢-٣.

٤٢- صموئيل الأول : ٩ : ١٦.

٤٣- صموئيل الأول : ٨ : ١٩-٢٠.

٤٤- صموئيل الأول : ١٥ : ٢٤.

٤٥- صموئيل الأول : ١٥ : ١٠.

٤٦- صموئيل الأول : ١٥ : ١٢ ، ٢٦.

٤٧- أخبار الأيام الثاني ٦ : ٤-٦ ، الملوك الأول ٨ : ١٥-٦.

٤٨- الملوك الأول ٩ : ١.

٤٩- الملوك الأول ٩ : ١٠.

٥٠- الملوك الأول ١١ : ٣١-٣٢ ، ٣٧-١٣.

٥١- أخبار الأيام الأول ٢٢ : ٦-١١.

٥٢- صموئيل الثاني ٢٤ : ١٥-١٧ ، ٢٥.

٥٣- أخبار الأيام الأول ٢٨ : ٢-٧.

٥٤- الملوك الأول ١١ : ١-١٠.

٥٥- الملوك ١١ : ١١ : ١٣.

٥٦- الملوك الأول : ١١ : ٢٩ : ٣٣.

٥٧- الملوك الأول ١٢ : ٢٠ ، ١١ : ٤٣.

٥٨- الملوك الأول ١٢ : ٢٥-٣٣.

٥٩- الملوك الأول ١٤ : ٢٥-٢٦.

٦٠- الملوك الأول ١٤ : ٢١ ، ٣٠-٣١.

٦١- الملوك الأول١٦ : ٢٣-٢٤ ، ٣١-٣٢.

٦٢- الملوك الثاني١٢ : ١٧-١٨ ، ١٣ : ١٤-١٤.

٦٣- الملوك الثاني ١٥ : ٢٩ ، ١٧ : ١-٦.

٦٤- الملوك الثاني ٢٤ : ١٧-٢٥.

٦٥- الملوك الثاني ١٨ : ٣٣-٣٥.

٦٦- الملوك الثاني ١٩ : ٦ ، ١٩ : ٧.

٦٧- الملوك الثاني ١٩ : ٢١-٢٢.

٦٨- الملوك الثاني١٩ : ٢١-٣٤.

٦٩- الملوك الثاني ١٩ : ٣٥-٣٦.

٧٠- الملوك الثاني ٢٠ : ١٧-١٨ ، ٢١ : ١٢-١٥.

٧١- الملوك الثاني ٢٣ : ٣٣-٣٥.

٧٢- الملوك الثاني ٢٤ : ١-٢ ، ١٥-١٦.

٧٣- الملوك الثاني٢٥ : ٨-١٧.

٧٤- الملوك الثاني ٢٣ : ٢٧ ، ٢٥ : ٢٦.

٧٥- القضاة ١٩ : ١٠-١٢.

٧٦- حزقيال ١٦ : ١-٣.

٧٧- يشوع ١٥ : ٦٣.

٧٨- القضاة ١ : ٢٩-٣٢.

٧٩- القضاة ١ : ٢٩-٣٣.

٨٠- القضاة ٣ : ٥-٦.

٨١- القضاة ١٠ : ٦.

٨٢- صموئيل الثاني ٢٤ : ١٨ -٢٥٢.

٨٣- الملوك الأول ١٥ - ٦ ، ١٦.

٨٤- أخبار الأيام الثاني ٣٦ : ١٧-٢٠.

حواشي الفصل الرابع :

١- توماس ل. طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علـــي سوداح، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥م.

٢- توماس ل. طومسون، أسفار العهد القديم في التاريخ، ترجمـــة عبدالوهـــاب علوب، مراجعة محمد خليفة حسن، المجلـــس الأعلـــى للثقافـــة، القـــاهرة، ٢٠٠١م.

المصادر والمراجع

المصادر العربية :

١- د. حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم. دار القلم دمشق، ١٩٩٠م.

٢- إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، دار العلم للملايين، بيروت.

٣- عارف باشا العارف، تاريخ القدس، مطبوعات البنك العربي الدولي للمعلومات.

٤- توماس ل. طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سوداح، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥م.

٥- توماس ل. طومسون، أسفار العهد القديم في التاريخ، ترجمة عبدالوهاب علوب، مراجعة محمد خليفة حسن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١م.

المصادر الأجنبية :

1- John Bright, A History of Israel, 2nd. Edition, the Westminister Press, Philadelphia, 1972.

2- W.F. Albright : the Biblical period from Abraham to Ezra a historical survey, Harper, 1949.

3- W.F. Albright :From The Stone Age to Chritsanity, Monotheism and the Historical process, Double day and Co., N.Y. 1957.

4- Albright, North Israelite deportees in Mesooptamia, Bulletin of the American School of Oriental Research, 149, 1958.

5- Max L. Margolis and Alexander Marx, A History of the Jewish People, Atheneum, N.Y. 1969.

6- Salo W. Baron, A Social and Religious History of the Jews, vol. 11, Columbia Univ. Press, and the Jewish Publication of America, Y. Y. and Philadelhia, 2nd , 1952.

7- S. Moscati, Ancient Semitic Civilizations, Putnam,s Sons, New York.



رقم الايداع : ٢٠٠٢/١٤٣٤٨

I.S.B.N. 977-222-250-7: الترقيم الدولى